منشورات اتحاد الكتاب العرب

دراسات

في المعاصرة والتراث

الأستاذ الدكتور محمود أحمد السيّد

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذه مجموعة من الدراسات، ألقي معظمها في عدد من المؤتمرات، وقد آثرت أن يكون عنوانها «دراسات في المعاصرة والتراث» لأنها تدور في هذين الفلكين، فلكي المعاصرة والتراث، ولما كان العصر الذي نحيا فيه هو عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، كان من متطلبات هذا العصر أن يكون المرء مزوداً بثقافة علمية تتيح له مواكبة روح عصره، ولن تتأتى له هذه الثقافة إلا بالتعلم، ويجيء التعلم الذاتي الذي هو أساس للتعلم المستمر مدى الحياة في مقدمة أنماط هذا التعلم مادام العصر متغيراً في أساليبه، ومتفجراً في ثوراته، ومتوثباً في تطلعاته.

ولما كانت اللغة العربية وعاء المعرفة في مختلف ميادينها كانت طبيعة العصر تملي على اللغة أن تكون علمية في استعمالاتها، وهذا ما دفع إلى أن يفرد لخصائص الكتابة العلمية باللغة العربية حيّز خاص في هذه الدراسات، وقد تمثلت هذه الخصائص في الأمانة العلمية في الاقتباس والشواهد ورد الفكر لأصحابها، وفي الدقة والوضوح في استعمال الأسلوب العلمي، وفي البعد عن التعميم، وفي الحذر العلمي في إطلاق الأحكام، وفي البعد عن التقرير والجزم والتأكيد، وفي البعد عن المبالغة في إسباغ الصفات على الأشخاص، وفي البعد عن الغرور ووجوب التحلي بالتواضع، وفي احترام الرأي الآخر.

وإذا كان من سمات هذا العصر أنه عصر المعلوماتية، وأن المجتمع القوي والمتقدم فيه هو مجتمع المعرفة، وأنه عصر العولمة، وعصر التغيرات السريعة، وعصر الاجتياح المادي وانحسار القيم المعنوية، وعصر التفكير المنظومي، كان على لغتنا العربية أن تواجه التحديات السلبية لتلك السمات في انعكاساتها عليها، تعزيزاً للانتماء، وتنشيطاً للغة العربية في المعلوماتية والتوجه نحو مجتمع المعرفة، ودعماً لمسيرة التعريب في الحفاظ على صفاء اللغة والعمل على سيرورتها وانتشارها، وفي سيرورة التفكير العلمي والعناية بالبحث العلمي، مع التزامن بنشر روائع الثقافة العربية وقيمها الإنسانية.

وإن مواجهة العصر تحتم على الأمة العربية كي يكون للغتها البقاء والاستمرارية أن تعمل على حسم موضوع التعريب ووضع قوانين لحماية اللغة العربية واعتماد مبدأ التعلم الذاتي في توجهها المستقبلي، واكتساب مهارات استخدام التقانات الحديثة، والتحلي بالمرونة وتقبل التغيير، والعناية بالصناعة المعجمية، واعتماد التربية في العمق تحقيقاً للإبداع والابتكار، وإعداد الفرد للحياة، والعناية بلغة الطفولة المبكرة والتعليم الأساسي، وتفصيح العاميات، وإعداد المعلمين الأكفياء، وحرية المعلمين، وتفعيل المجامع اللغوية، والعناية بالترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأخرى، والإكثار من جمعيات التمكين للغة العربية وحمايتها، والاهتمام بتعلم اللغات الأجنبية.

تلك هي دراسات الباب الأول. أما دراسات الباب الثاني فقد تمثلت في الوقوف على التراث مفهوماً وحدوداً ومواقف منه ثم الوقوف على التراث العربي سمات ومكانة، حيث تبدت تلك السمات في عراقة التراث العربي، وشموليته، وعقلنته، واعتماد المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق، والتوازن والتكامل، والانفتاح على الثقافات الأخرى، والمناقبية والإنسانية.

ولما كان كاتب هذه السطور عربياً، وكي لا يقال إنه متحيّز لتراث أمته العربية، آثرت أن آتي بباقة من أقوال عدد من الأجانب في مكانة التراث العربي، ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

شهد الأنام بفضله حتى العدى والفضل ما نطقت به الأعداء

وإذا كان ثمة من يسأل: هل يعد تراثنا العربي صالحاً للبقاء في هذا العصر؟ كانت الإجابة تتجلى في أن كل ما ورد في تراثنا العربي ليس صالحاً للبقاء كله، لأن فيه الغث والسمين، وأن علينا أن نقدم النماذج الحيّة من هذا التراث والتي تساعدنا على فهم حاضرنا ومعالجة مشكلاتنا، وتعيننا على توجهنا المستقبلي، وذلك كله في ضوء المنهج العقلاني البعيد عن الأهواء والتعصب والتزمت. ومن النماذج الحية في عصرنة تراثنا المنهج التجريبي العلمي، والإسهامات اللغوية، والإسهامات التربوية الإنسانية.

وإن هذا التراث الحي أساس في بناء الحاضر وتشييد المستقبل لأنه إنساني في قيمه وفضائله ومناهجه ومواقفه، وقد أعان بروحه وقيمه ومثله الأمة العربية على الصمود مهما داهمت أقطارها

الغزوات والنكبات، ولأنه قابل للتطور في كل زمان ومكان، ويعوّل على أشرف ما في الإنسان عقله وضميره، ويدعو إلى كرامة الإنسان والإخاء والمساواة.

وإذا كان يقال: الماضي مثل، والحاضر عمل، والمستقبل أمل، فإنني أرى أن المستقبل أمل وعمل في الوقت نفسه، ولهذا كان الكشف عن هذا التراث الحي حتى يكون في نسج حياتنا المعاصرة وتوجهنا المستقبلي يحتاج إلى خطة عملية وإجراءات تنفيذية، وهذا ما ركز عليه الفصل الرابع والأخير من الباب الثاني الخاص بالتراث.

وكلي أمل في أن يكون في هذه الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب بعض من فائدة في تعرف متطلبات عصرنا في حياتنا وانعكاساتها على لغتنا، وواجبنا تجاهها، وفي تعرف تراثنا العربي، وما هو جدير منه بالبقاء في حياتنا أيضاً، وواجبنا تجاهه.

والله الموفق

دمشق في ١٦/ ٢/ ٢٠١٣ **المؤلف**

المحتويات

الباب الأول

في المعاصرة

الفصل الأول- الثقافة العلمية من متطلبات العصر ص (١٠)

أولاً- مدخل تعريفي ص(١١)

ثانياً- الثقافة العلمية تاريخاً وأهدافاً ص(١٣)

ثالثاً- طبيعة العصر وزاد الثقافة العلمية ص(١٧)

رابعاً- الثقافة العلمية وأنماط التعلم ص(٢٠)

خامساً- من أساليب النهوض بواقع الثقافة العلمية في الوطن العربي ص(٢٦)

الفصل الثاني- خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية ص(٣٢)

أولاً- مدخل تعريفي ص(٣٣)

ثانياً- خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية ص(٣٦)

١- الأمانة العلمية في الاقتباس والشواهد ورد الفكر لأصحابها ص (٣٦)

٢- عدم الإسراف في النقل ص (٣٨)

٣- استعمال الأسلوب العلمي في الدقة والوضوح ص(٣٨)

٤- البعد عن التعميم ص(٤٠)

٥- الحذر العلمي ص(٤٢)

٦- البعد عن التقرير والتأكيد ص(٤٣)

٧- البعد عن المبالغة في إسباغ الصفات على الأشخاص ص(٤٤)

٨- البعد عن الغرور ص(٤٥)

٩- احترام الرأي الآخر ص(٤٦)

١٠- العناية بالشكل إلى جانب المضمون. ص(٤٨)

ثالثاً- توصيات ص(٤٨)
الفصل الثالث- اللغة العربية وتحديات العصر ص(٥٣)
أولاً- سمات العصر وتحدياته ص(٥٤)
١- عصر العلم والتقانة ص(٥٥)
٢- عصر العولمة ص(٥٦)
٣- عصر التغيرات السريعة ص(٥٧)
٤- عصر الاجتياح المادي ص(٥٨)
٥- عصر النفعية والوظيفية ص(٥٨)
٦- عصر التفكير المنظومي ص(٥٩)
ثانياً- اللغة العربية في ضوء تحديات العصر ص(٦٠)
ثالثاً- من سبل مواجهة التحديات ص(٦٢)
١- تعزيز الانتماء ص(٦٢)
٢- تنشيط اللغة العربية في المعلوماتية ص(٦٣)
٣- دعم مسيرة التعريب ص(٦٥)
٤- الحفاظ على صفاء اللغة والعمل على سيرورتها وانتشارها ص(٦٧)
٥- نشر روائع الثقافة العربية وقيمها الإنسانية ص(٦٨)
٦- سيرورة التفكير العلمي والعناية بالبحث العلمي ص(٦٨)

الفصل الرابع- مستقبل اللغة العربية ومتطلبات العصر القادم ص(٧١)
أولاً- ما مستقبل اللغة العربية؟ ص(٧٢)
ثانياً- من خصائص العصر القادم ص(٧٥)
ثالثاً- اللغة العربية ومتطلبات مواجهة العصر القادم ص(٧٧)
١- حسم موضوع التعريب ص(٧٧)
٢- وضع قوانين لحماية اللغة العربية ص(٧٨)
٣- اعتماد مبدأ التعلم الذاتي ص(٧٨)
٤- استخدام التقانات الحديثة ص(٧٩)
٥- المرونة وتقبل التغيير ص(٧٩)
٦- العناية بالصناعة المعجمية ص(٨٠)
٧- اعتماد التربية في العمق تحقيقاً للإبداع والابتكار ص(٨٠)
٨- إعداد الفرد للحياة ص(٨٣)
٩- العناية بلغة الطفولة المبكرة والتعليم الأساسي ص(٨٤)
١٠- تفصيح العاميات ص(٨٥)
١١- إعداد المعلمين الأكفياء ص(٨٥)
١٢- حرية المعلم ص(٨٦)
١٣- تفعيل المجامع اللغوية ص(٨٦)
١٤- الإكثار من جمعيات التمكين للعربية وحمايتها ص(٨٧)
١٥- العناية بالترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأخرى ص(٨٧)
١٦- الاهتمام بتعلم اللغات الأجنبية ص(٨٨)

الباب الثاني:

في التراث العربي

الفصل الأول- التراث مفهوماً وحدوداً ومواقف ص(٩٢)

أولاً- التراث مفهوماً وحدوداً ص(٩٣)

ثانياً- حدود التراث ص(٩٦)

ثالثاً- مواقف من التراث ص(٩٧)

الفصل الثاني- التراث العربي سمات ومكانة ص(١٠٣)

أولاً- سمات التراث العربي ص(١٠٤)

١- العراقة ص(١٠٤)

٢- الشمولية ص(١٠٦)

٣- العقلنة ص(١٠٨)

٤- اعتماد المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق ص(١٠٩)

٥- التوازن والتكامل ص(١١٢)

٦- الانفتاح على الثقافات الأخرى ص(١١٣)

٧- المناقبية والإنسانية ص(١١٤)

ثانياً- التراث العربي في رؤى أجنبية ص(١١٧)

الفصل الثالث- التراث العربي عصرنةً ونماذج ص(١٢٧)

أولاً- عصرنة التراث ص(١٢٨)

ثانياً- نماذج مشرقة من عصرنة التراث ص(١٣٤)

١- المنهج التجريبي ص(١٣٤)

٢- في المجال اللغوي ص(١٣٧)

٣- في المجال التربوي ص(١٤٤)

الفصل الرابع- صوى على درب النهوض بالتراث العربي وإحيائه ص (١٥٦)

دراسات في المعاصرة والتراث

الباب الأول في المعاصرة

الفصل الأول- الثقافة العلمية من متطلبات العصر.

الفصل الثاني- خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية

الفصل الثالث- اللغة العربية وتحديات العصر

الفصل الرابع- مستقبل اللغة العربية ومتطلبات العصر

الباب الثاني في التراث

الفصل الأول- التراث مفهوماً وحدوداً

الفصل الثاني- التراث العربي سمات ومكانة

الفصل الثالث- التراث العربي عصرنةً ونماذج

الفصل الرابع- صوى على درب النهوض بالتراث العربي وإحيائه

الباب الأول

في المعاصرة

الفصل الأول- الثقافة العلمية من متطلبات العصر

الفصل الثاني- خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية

الفصل الثالث- اللغة العربية وتحديات العصر

الفصل الرابع- مستقبل اللغة العربية ومتطلبات العصر

الفصل الأول

الثقافة العلمية

من متطلبات العصر

الفصل الأول

الثقافة العلمية

من متطلبات العصر

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف مفهوم الثقافة العلمية، وأن نقف على خصائص العصر والزاد الذي ينبغي للمرء أن يتزود به من الثقافة العلمية لمواجهة متطلبات هذا العصر، وذلك بعد أن نتبين تاريخ الثقافة العلمية، والأهداف المرسومة لها، وأنماط تعلم هذه الثقافة، لنسلّط الأضواء على الواقع العربي، وأساليب الارتقاء بواقع الثقافة العلمية في حياتنا المعاصرة.

أولاً- مدخل تعريفي

غني عن البيان أن الثقافة ظاهرة إنسانية، أي أنها فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، لأنها تعبر عن إنسانيته، كما أنها وسيلته المثلى للالتقاء مع الآخرين، وتحدد ذاته وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، وما وراء الطبيعة، من خلال تفاعله معها، وعلاقاته بها في مختلف مجالات الحياة، وهي قوام الحياة الاجتماعية وظيفةً وحركةً، فما من عمل اجتماعي، أو فني جمالي، أو فكري، يتم إنسانياً خارج دائرتها.

والثقافة هي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادةً وبشراً ومؤسسات، وهي عملية إبداعية متجددة، فالتفاعل مع الواقع، تكيفاً أو تجاوزاً نحو المستقبل، من الوظائف الحيوية لها، وهي إنجاز تراكمي متنامٍ ومستمر تاريخياً، فهي بقدر ما تضيف من الجديد تحافظ على التراث السابق، وتجدد من قيمه الروحية، والفكرية، والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثالاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساسية، وبعد أساسي من أبعادها.[1]

والثقافة هي المخزون المعرفي، ومستودع قيم المجتمع، وأعرافه، وأحكامه، ومفاهيمه السائدة التي يتأثر بها أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم: المتعلم والجاهل، الكهل والطفل، المرأة والرجل، وذلك بدرجات متفاوتة، وفق استيعاب كل منهم، وحسب اتساع مداركه، ومن ثم

---

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- الخطة الشاملة للثقافة العربية- إدارة الثقافة تونس ١٩٩٠ ص٤١.

يكون للثقافة الدور الأبرز في تحديد سلوكيات الأفراد، وردود أفعالهم، وطرائق تفكيرهم.[٢]

والثقافة العلمية هي تزويد الأفراد بمعلومات وظيفية مرتبطة بالعلم وتطبيقاته، وتفكير علمي في حل قضايا العلم ومشكلاته، وتفكير ابتكاري نحو تقبل الجديد والمستجدات في مجال الاكتشافات، والاختراعات العلمية، والمهارات اليدوية، والعقلية، والاجتماعية، ومهارات الاتصال في مجال العلم وتطبيقاته.

وهي ميول، واهتمامات علمية، وتقدير جهود الدولة في المجالات العلمية، وجهود العلم والعلماء، واتباع السلوك البيئي السليم، وذلك كله في إطار قيمي، وأخلاقي، يتمشى مع الإطار القيمي للمجتمع.[٣]

وتتأثر الثقافة العلمية الموجهة إلى الجمهور بامتداد الساحة العلمية، والتطورات التقنية، لتتفرع وفق تلك الأنماط، وتتلون بألوانها، وتتخذ سماتها، فالتوعية الصحية، والإرشاد الزراعي، والتوعية الغذائية، والوعي البيئي والسكاني...الخ كلها فروع تنضوي تحت الثقافة العلمية.

ومن برامج وتوجهات الثقافة العلمية تلك التي تهتم بشرح عمل الأجهزة المختلفة، وتبسيط مكوناتها، وأحدث مثال على تنوع الثقافة العلمية المعاصرة ظاهرة ثقافة الشابكة «الإنترنت»، التي اجتذبت إليها فئات متعددة، واستقطبت اهتمام مختلف الشرائح الاجتماعية، نظراً لما يقدمه هذا الطوفان المعلوماتي من خدماتٍ وتحدياتٍ وآثار عارمة في المستويات الفكرية، والمعلوماتية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها.

ومن أهم أنواع الثقافة العلمية ذلك النوع الذي يهتم بتبسيط المبادئ والأفكار العلمية، وما يرتبط بها من مفاهيم، ومصطلحات، وتوقعات، ونتائج متعددة الأوجه، تعتمد على مستويات فكرية وعملية مختلفة، وعرض ذلك كله في قوالب جذابة، وأطر مشوقة. وهذا النوع

---

(٢) المرجع السابق.

(٣) الدكتور محمد عبد الباري القدسي- أدب وثقافة- قراءة في نشر الثقافة العلمية والتقانية- صحيفة ٢٦ سبتمبر باليمن- العدد ٣٠٢ ١ تشرين الأول ٢٠١١ ص٦.

من الثقافة العلمية هو الذي يفتح آفاق الفكر العلمي أمام الجمهور، ويزوده بمفاتيح الحس العلمي، ويهيئ المواطن لاستيعاب قضايا العلوم، ومشكلاتها، وحلولها، وطرائق توظيفها في خدمة المجتمع والتنمية.[٤]

ثانياً- الثقافة العلمية تاريخاً وأهدافاً

لم تكن الثقافة العلمية وليدة العصر الحاضر، فقد نشأ أول علم طبيعي دقيق في التاريخ في بابل العراقية عام ٥٠٠ ق.م، إنه علم الفلك البابلي، وفي القرن الثاني قبل الميلاد نشأ تقليد علمي دقيق في علم الفلك لدى الإغريق، وانتقل بعدها إلى الحضارة العربية الإسلامية.

وهذا يعني أن العلم الدقيق لم يبدأ في الحضارة الأوربية الحديثة وإنما بدأ في حضارات شرقي المتوسط والحضارات الشرقية القديمة، وانتقل عبر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وكان للثقافة العلمية حيّز في الحضارة العربية الإسلامية ذلك أن التقدم الذي أحرزه العرب إبان ألق حضارتهم لم يكن ليقتصر على العلم النظري، بل تعداه إلى حياة المجتمع العربي، وإلى الجوانب التطبيقية من العلوم، فكان للعلم عند العرب وظيفة اجتماعية فضلاً عن كونه بحثاً عن الحقيقة وتمكيناً لها.[٥]

ولقد قال المؤرخ الكبير جرمان مونبليه: «إننا نشهد للكتّاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بمزية الإيضاح التام والطريقة التعليمية»، وأشار الملك الإسباني «خوان كارلوس» إلى أن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس تشكل شطراً من تاريخ بلادنا، ذلك التاريخ المشترك الذي قدّم إلى العالم وخلال قرون ثمانية عدداً كبيراً من الشخصيات اللامعة في

---

(٤) الدكتور محمد خضر الشيباني- الثقافة العلمية مفتاح التقنية- مجلة العلوم والتقنية – مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية-الرياض- العدد ٥٥ ص٢١.

(٥) الدكتور محمود أحمد السيّد- التراث بين الماضي الحي والغد المنشود- مجلة العرب- دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع- الرياض- ج٩ و١٠ آذار ونيسان ٢٠١٠ ص٥٥٢.

تاريخ البشرية بأبعاده الواسعة، وإن إسبانيا اليوم تشعر بالفخار بماضيها الذي تقاسمته مع الشعب العربي العظيم، وبمساهمات رجاله في التقدم الثقافي، والعلمي للبشرية.[٦]

واتبع العرب في العلوم الطبيعية وفي جوانبها التطبيقية كالطب والصيدلة منهجية علمية راقية، تقوم على خمس دعائم، وهي:[٧]

١- نفي الخرافات.

٢- سعة الاطلاع.

٣- الرحلات للبحث والتنقيب.

٤- التجارب.

٥- الموازنة.

وتجدر الإشارة إلى أن العرب اقتبسوا ما كان لدى الأمم الأخرى من علوم ومعارف مختلفة في الفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء، وعلى الأخص في علم الطب الذي يمثل حاجة أساسية من حاجات الإنسان لاتصاله بصحته وقوته ووجوده، ولكن العرب لم يقفوا عند حد الاقتباس الذي تم بطريق الترجمة التي نشطت أيما نشاط آنئذ، بل سرعان ما تمثلوا ما ترجموه، وانتقلوا إلى مرحلة الوضع والابتكار.[٨]

ولقد أثمرت المحاولات في القرن السابع عشر في الغرب باسم غاليلو الإيطالي ومن بعده باسم نيوتن الإنجليزي في الثقافة الحديثة والاقتصاد الحديث. وكانت ثمة محاولات مستمرة بذلت من قبلُ لتبسيط المفاهيم والأفكار.

وفي الغرب كانت ثمة محاولات مستمرة لتبسيط المفاهيم والأفكار، وتوضيح المعطيات التقنية، وإبراز المعاني والدلالات المرتبطة بالجهود والنتائج العلمية، وكان من أبرز ذوي هذه

---

(٦) الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا الثقافة- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢ ص٢٦.

(٧) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩ ص٥٣.

(٨) شحادة الخوري- أوراق ثقافية- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق ٢٠١٢ ص١٦٣.

المحاولات الفيزيائي البريطاني «مايكل فاراداي» في بداية القرن التاسع عشر، وقد أدى اكتشافه لظاهرة الحث الكهرومغناطيسي إلى اختراع المولد الكهربائي، ففتح بذلك باب استخدامات الطاقة وتحويلاتها على مصراعيه، وكان حريصاً على إلقاء المحاضرات العامة، وتبسيط أعماله العلمية، واشتهر بمهارته في الحوار والتشويق والإيضاح، وكان مدركاً منذ ذلك الوقت لأهمية تعليم العلوم للجميع على أوسع نطاق، وغدا المتحدث باسم الحركة العلمية في عصره والمروج لها، إذ باتت محاضراته العامة ملتقى شرائح متنوعة من المجتمع البريطاني، وعمدت الجمعية الملكية البريطانية إلى تأسيس جائزة «فاراداي» تمنح الأوائل الذين يقدمون إسهامات بارزة في مجال التوعية العلمية للجمهور.[٩]

واهتم علماء مرموقون في القرن العشرين في الغرب بعملية التواصل مع الجمهور وعبر تأليف الكتب والنشرات المبسطة وإلقاء المحاضرات، والمشاركة في الندوات العامة، وكان من أبرزهم «إينشتاين» و«تشارلز نسو»، و«جون ميللر»، حيث أنجز الأخير عام ١٩٧٠ دراسة عن قياس مستوى الثقافة العلمية في أمريكا، تبين له من خلالها أن عدداً لا يزيد على ٧٪ من الأمريكيين يمكن تصنيفهم على أنهم مثقفون علمياً، وأغلب الظن أن النسبة قد زادت بعد ذلك التاريخ، ولكن «إذا كانت نسبة المثقفين علمياً هي بتلك الضآلة في مجتمع علمي متقدم مثل الولايات المتحدة الأمريكية، فكيف تكون عليه الحال في الدول النامية ذات الصلة الحديثة بالحركة العلمية ومعطياتها المختلفة ومنها دولنا العربية؟»[١٠].

إن أبناء الأمة العربية في أمس الحاجة إلى الثقافة العلمية، وإن التوعية العلمية وهي الممارسة الفاعلة في نشر الثقافة العلمية تطمح إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسة، وهذه الأهداف الأربعة هي:

١- تهيئة تربة خصبة لإنتاج علماء، وكفاءات قادرة على الممارسة العلمية، والإبداع التقني،

---

(٩) الدكتور خضر محمد الشيباني- الثقافة العلمية مفتاح التقنية- مرجع سابق ص١٥.

(١٠) المرجع السابق ص١٦.

فالقاعدة الجماهيرية العريضة المتفاعلة مع الفكر، والمتواصلة مع الحركة العلمية هي بطبيعة الحال منبت المواهب، ومستودع القدرات.

٢- توفير الشفافية العلمية التي تيسر على المواطن فهم ماهية الفكر العلمي، وعمومياته، ومواكبة تطوره، واستيعاب التقنيات ليستفيد منها أقصى استفادة ممكنة، ويتعامل معها وفق ضوابطها، وشروطها في ممارسة رشيدة، وإدراك حقيقي لمتطلبات الحياة المعاصرة.

٣- تطوير القدرة لدى قاعدة واسعة من الناس على فهم المشكلات الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية المرتبطة بالعلوم والتقنية، والسعي إلى الإسهام في المشاركة في اتخاذ القرارات المرتبطة باختيار التقنيات، ومواكبة المستجدات والمتغيرات، وتحديد الأبدال، وتنظيم الممارسات العلمية، وتهيئة الأنماط الاجتماعية والمؤسسية القادرة على التفاعل بإيجابية مع طوفان الحركة العلمية والتقانية العارم.

٤- تهيئة مناخ من الرأي العام متعاطف مع الحركة العلمية، وداعم لمجابهة الانطباعات الانفعالية، وردود الفعل السلبية التي تلوث مناخ الثقة اللازم لنمو الحركة العلمية، وتغلغلها بصورة طبيعية في نسيج البيئة الاجتماعية.[١١]

وثمة من أضاف أهدافاً أخرى إلى الأهداف الأربعة التي سبق ذكرها، ومن الأهداف التي أضيفت:

١- جعل الثقافة العلمية جزءاً عضوياً ومكوناً رئيساً من مكونات الثقافة الجماهيرية السائدة لتحقيق شروط المعاصرة، والكفاءة، والتوازن، تأصيلاً للثقافة التنموية.

٢- تحقيق الأمن العلمي، وهو أمر ذو أهمية استراتيجية، ويتمثل في قدرة المجتمع على اكتساب المعرفة العلمية والتقنيات الحديثة، وإنتاجها.[١٢]

وهكذا يتبدى لنا أن الهدف الأساسي من نشر الثقافة العلمية والتقانية هو مؤازرة المجتمع

---

(١١) المرجع السابق ص١٩.

(١٢) الدكتور محمد عبد الباري القدسي- أدب وثقافة- مرجع سابق ص٦.

للدخول في مجتمع المعرفة، وإن مجتمع المعرفة هو الذي يؤمن بالتفكير العلمي أسلوباً لحل المشكلات، وكشف الحقائق، واتخاذ القرارات، والأسلوب العلمي هو وسيلة المجتمع نحو النظرة الموضوعية، والتخلي عن الأثرة، والذاتية، والتحيز، والتعصب، ذلك لأن التفكير العلمي يمتاز عن غيره من أنماط التفكير بالدقة والموضوعية، والطلب الدائم للدليل والبرهان، واستخدام المنطق السليم.[١٣]

وإذا كان التفكير العلمي هو وسيلتنا لحل مشكلات الحاضر فإن التخطيط العلمي يتضمن توقع مشكلات المستقبل، والاستعداد لها في الوقت المناسب، تجنباً لآثارها السلبية، وتلافياً لمقولة شاعرنا العربي:

ولا يعرفون الشرَّ حتى يصيبهم ولا يعرفون الخير إلا إذا مضى

ثالثاً- طبيعة العصر وزاد الثقافة العلمية

لما كانت الثقافة العلمية تهدف إلى إكساب المواطنين القدرة على اتخاذ القرارات على الصعيدين الشخصي والاجتماعي، وإلى توطين نظرة علمية تساعد على تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وترسيخ أسس التفكير العلمي المعاصر لتمكين أفراد المجتمع من استيعاب الأحداث، والمشاركة في صنع الحياة، ومواكبة روح العصر، كان على الجمهور المستهدف أن يتمثل روح العصر الذي يواكبه، ويتبين خصائصه وسماته.

ومن سمات هذا العصر الذي نحيا تحت ظلاله التغير المستمر، فهو عصر التفجر المعرفي والثقافي، وهو عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وعصر الاتصالات السريعة، وما يترتب عليه من إزالة الحواجز بين المجتمعات، والتأثر بالتيارات الثقافية المعاصرة، وبالتيارات الفكرية والسياسية، وعصر المزاوجة بين العلم والعمل، والنظرية والتطبيق، والتغير الاجتماعي السريع، وطغيان الاجتياح المادي، وانحسار القيم الروحية والاجتماعية والمعنوية، وهو عصر الابتكار والتجديد والتوجيه الاجتماعي للمعرفة.

---

(١٣) الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان- المناهج المعاصرة- دار الفلاح- الكويت ١٩٩٢ ص٦٣.

وإذا كانت تلك هي بعض من سمات العصر فإن هذه الطبيعة تفرض علينا الاهتمام بدراسة العلوم مادة وطريقة، وتأكيد الرابطة بين العلم والعمل، والنظرية والتطبيق، وحفظ التوازن بين القيم المادية والقيم الروحية، ومراعاة العمق والشمول في إعداد المواطن للحياة.

كما أن طبيعة العصر تتطلب من المواطن أن يكون واعياً لتلك السمات والخصائص، وأن يكون مزوداً بثقافة علمية، وبكفايات تساعده على اعتماد الإيجابي من خصائص هذا العصر، واستبعاد السلبي منها. ومن هذه الكفايات المطلوبة:

١- مرونة التفكير وقبول التغير: إذ ما دامت طبيعة العصر تتسم بالتغيرات السريعة المتلاحقة كان على المواطن أن يتسم بالمرونة في التفكير تجاه التغيرات في منأى عن أي تحجر، أو تزمت، أو جمود، على ألا يكون ذلك على حساب الثوابت القومية، ومصلحة الأمة.

٢- الانفتاح وسعة الأفق: وهذه كفاية وثيقة الصلة بسابقتها، إذ لا شيء يقتل الإنسان مثل الانغلاق وضيق الأفق، ولا شيء يغني حياته، ويجعل لها مذاقاً ورحابة وإنسانية مثل سعة الأفق، وبعد النظر، والتجدد المستمر للمعارف، ولقد قيل: العلم الراكد والمستقر كالجهل المستقر، وقديماً قال شاعرنا العربي:

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب، وإن لم يسرِ لم يطبِ

٣- التفكير الناقد: لما كانت طبيعة العصر تتسم باختلاط الأوراق، وغياب المعايير الموضوعية، ودس السم بالعسل، وغزو العقول، وخلخلة الانتماء، وزعزعة القيم، وسيرورة قيم الاستهلاك، كان تزويد المواطن بمهارات التفكير العلمي الناقد التي بوساطتها يستطيع أن يميز بين الغث والسمين، بين ما يلائم مجتمعه، وما لا يلائمه، بين الخبرة المربية وغير المربية، أمراً تستلزمه طبيعة العصر في ظل عولمة، تروم امحاء الذاتيات الثقافية للشعوب والمجتمعات.

وإن التفكير النقدي السليم هو الذي لا ينظر إلى الظواهر بعين الرضا وحدها، ولا ينظر إليها بعين السخط وحدها، وإنما ينظر إليها بعين الموضوعية في منأى عن أي تحيز، أو تعصب، أو

تشنج، أو تحامل.

ويرتبط التفكير النقدي ارتباطاً عضوياً بمناهج التفكير العلمي، وهو لا يعني مجرد الرفض، أو التفنيد، أو المعارضة لما هو قائم، وإنما يدعو في دراسة أي ظاهرة اجتماعية إلى الاهتمام بالسياقات الاقتصادية، والاجتماعية، والأبعاد التاريخية لها، وهو منهج لا يكتفي بالأشكال الظاهرة في واقعها المحدد بالزمان والمكان الراهنين، وإنما يبحث عن الجذور المجتمعية التي أدت إلى تشكل هذه الظاهرة، ويؤكد دور التجديد والتغيير في البحث والمعرفة بغية كشف الأبعاد الحقيقية للواقع، والسعي إلى تجاوز عقباته، وصولاً إلى الأجمل والأكمل.

وفي عملية بناء التفكير النقدي لابد من ترسيخ تقاليد معينة تتمثل في احترام الرأي، وتقدير الرأي الآخر، والموضوعية في إصدار الأحكام، ذلك لأن الشخصية المتكاملة هي التي تتقبل النقد من الآخرين، وتسعى إلى تعديل مسارها، وتطوير أدائها نحو الأفضل، في ضوء ما يوجه إليها من ملاحظات، وجاء في تراثنا «رحم الله امرأً أهدى إلينا عيوبنا».[١٤]

٤- مواجهة المشكلات بالأساليب العلمية: ذلك لأن التفكير الخرافي واتباع أساليب السحر والشعوذة والترهات من الأساليب الدالة على التخلف، في حين أن مواجهة المشكلات بطريق إعمال العقل والتفكير وإدراك العلاقات بين الظواهر المدروسة، طبيعية كانت أو اجتماعية، من الأساليب الدالة على التقدم والرقي.

٥- القدرة على الإبداع: فعصرنا الحالي لم يعد يحتمل ثقافة الذاكرة وحدها، ولم يعد يعتمد على الحفظ وحده في تنمية العقل، وإنما يتطلب استثارة المهارات العقلية العليا من فهم، وتمثل، وربط، وموازنة، وتحليل، وتفسير، ونقد، وتقويم، وصولاً إلى الإبداع والابتكار.

٦- التعلم الذاتي: تجاوز عصرنا الحالي تلك المراحل التي يعتمد فيها المرء على الآخرين للوصول إلى المعرفة بعد أن تعددت مصادر التعلم، إذ لم يعد المعلم مصدرها الوحيد،

---

(١٤) الدكتور محمود السيّد- مقالات في الثقافة- وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٤ ج٢ ص٤٩٣.

فبات على المرء أن يعتمد على نفسه في التنقيب والبحث واكتشاف الحقائق والمعلومات، فلا شيء يعدل لذة اكتشاف المرء المعارف معتمداً على ذاته. والمعلومات التي يتوصل إليها المرء عن هذا الطريق تبقى راسخة في ذهنه، ومن الصعوبة محوها، في حين أن المعلومات التي يتوصل إليها بطريق نقلها من الآخرين دون بذل أي مجهود في سبيل الحصول عليها، هي معلومات معرضة للزوال والنسيان. ومن هنا باتت طبيعة العصر تتطلب أن يتمكن كل فرد من أن يعلّم نفسه طوال حياته من المهد إلى اللحد.[١٥]

بيد أن هذه الكفايات التي تستلزمها طبيعة العصر تحتاج بغية توفرها لدى المواطنين إلى تدريب وتأهيل وتعليم، وتأمين الأجواء الملائمة التي تحدث فيها العملية التعليمية التعلمية بغية اكتساب تلك الكفايات. وهذا يدعونا إلى الوقوف على أنماط التعلم التي يكتسب المرء بوساطتها الكفايات المطلوبة، والتي تقتضيها طبيعة العصر في مجال الثقافة العلمية.

رابعاً- الثقافة العلمية وأنماط التعلم

دعت المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) إلى أن يكون التنور العلمي والتقاني أي الثقافة العلمية متطلباً عالمياً لتقليل الفجوة بين المجتمعات، ومنع حدوث إرباك في ظل التغير السريع والمذهل الذي يحدث في العالم المعاصر.

وفي ضوء ذلك لم تعد القراءة والكتابة والحساب هي أساسيات محو الأمية للمواطن فحسب، بل أصبح التنور العلمي، وأضحت الثقافة العلمية التقانية، جزءاً لا يتجزأ من هذه الأساسيات.

والتنور العلمي هو معرفة المفاهيم والعمليات العلمية اللازمة لاتخاذ القرار على المستوى الشخصي، وفهمها، والمشاركة في الشؤون المدنية والثقافية والإنتاجية والاقتصادية، واتخاذ المواقف تجاه الشؤون العلمية والتقانية.

كما أن التنور العلمي هو القدرة على استخدام الكتابة والقراءة وتطبيق مهارات الاستماع

---

(١٥) المرجع السابق ص٤٩٤.

والتواصل بوضوح بغية الانخراط في مهارات التفكير، والتحليل الناقد، وتقويم المعلومات المتوفرة، باستخدام أسلوب الاستقصاء العلمي.[١٦]

ولا يقتصر التنور العلمي على فهم الفروع المعرفية بصورة منفصلة، بل يتضمن إيجاد الروابط ما بين العلم والرياضيات والتقانة، وكذلك بين هذه المجالات والعلوم الإنسانية والآداب والموضوعات المهنية.

ويعمل تحقيق التنور العلمي على تطوير التفكير العقلاني، ويساعد الفرد على اكتشاف المحيط الذي يحيا فيه، ويمكنه من فهم القضايا اليومية، فالتنور العلمي مزيج بين المفاهيم والتاريخ والفلسفة التي تساعد على فهم القضايا العلمية.

ولدى الشخص المتنور علمياً خلفية علمية قوية في الحقائق والمفاهيم والنظريات العلمية، والقدرة على تطبيقها، كما أن لديه فهماً واضحاً لطبيعة العلم واتجاهاً إيجابياً نحو العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وإدراكاً لقيمة العلم والتقانة في تطوير المجتمع، وقدرة على استخدام الأساليب العلمية في حل المشكلات، وفهماً صائباً للبيئة بمفهومها الشامل.

ولا يمكن لعملية التنور العلمي أن تنمو وتترعرع بانسجام وتناغم مع معطيات العصر ومتطلباته دون أن تتمكن من استيعاب ملامح ثقافة علمية وثقافة متنامية ضمن مكوناتها، ولن يتحقق ذلك في غياب استراتيجية عامة وتخطيط علمي مدروس يهيئ للعامة فهم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بقضايا العلم والثقافة ومواكبة المستجدات والمتغيرات، والتفاعل بإيجابية مع الحركة العلمية والتقانية العالمية.

وتهدف النظرة الحديثة للتربية العلمية المستنيرة إلى إكساب الطلبة مهارات الاستقصاء، واستخدام منحى التفكير العلمي في حل المشكلات، وليس على جمع المعلومات وحفظها، ومن هنا كانت مناهج العلوم تعمل على تنويع مصادر المعرفة، وتعمل على ربط الموضوعات العلمية بالواقع المحيط وثقافة المجتمع، وقد أدى ذلك إلى تغير في دور المعلم من الدور التقليدي الذي يتمحور

---

(16) Mackee, j. and Qgle,D. Integrating wstruction literacy and science, Ny: Guilford publications. 2005

حول نقل المعرفة وتلقينها، إلى دور أكثر اتساعاً، وتنوعاً، بالتركيز على مهارات الاستقصاء، وفهم العلاقة المتبادلة بين العلم والتقانة والمجتمع، وتشجيع الطلاب على الاكتشاف، وتفسير الظواهر، والتحقق منها عند تقديم التبريرات والبراهين، والبحث عن أساليب وأنماط تعليم وتعلم للعلوم، تعكس طبيعة العلم والمعرفة العلمية، مع تأكيد الاستقصاء العلمي طريقةً للوصول إلى المعرفة، وفهم العالم.

وإن نمط التعليم ما هو إلا سلوك يحدد الطريقة التي يفضلها المتعلم لاكتساب المادة التعليمية، والاحتفاظ بها، والتفاعل معها، فيتعلم المتعلمون وفق أنماط تعلمهم، فمنهم من يفضل نمط التعلم التأملي على النظري، وآخرون يفضلون النمط النفعي، ويفضل غيرهم نمط التعلم النشط، ومن ثم فمعرفة المعلم بأنماط تعلم المتعلمين، وانسجام تعليمه مع أنماط تعلمهم، يسهّل عملية تصميم الدروس، واختيار الأنشطة التعليمية التي تحسن التحصيل، وتنمي الاتجاهات الإيجابية لديهم.

وثمة مجموعة من التفضيلات في أنماط التعلم لدى المتعلمين، فهم يفضلون التواصل غير اللفظي أكثر من التواصل اللفظي، والتعلم الجماعي على الفردي، والتفسير الاستنتاجي على المنطقي، ويركزون على الأشخاص أكثر من الأشياء، كما يحبذون أوضاع التعلم الفعّال، ويتعلمون بالمشاركة في مختلف الفعاليات التعليمية.[١٧]

وقد صنف «هني وممفورد Honey and Mumford» أنماط التعلم في أربعة أنماط هي:

١- **نمط التعلم النشط (Activist)**: يمتاز صاحب هذا النمط بصفة القيادة، ويحب عملياً أن يجرب، ويستمتع بإجراء النشاط، كما يحب العمل الجماعي والمشاركة في الخبرات الجديدة، فهو يفضل لعب الأدوار، والمناقشات مع الآخرين، والأنشطة التي تتم

(17) Gibbons, B, A «Supporting Elementary science Education for English learning: Aconstructivist evaluation instrument» The journal of educational research 96 (6) , 2003 p 371-379

خارج البيئة التعليمية التعلمية.

٢- **نمط التعلم المتأمل (Reflective)**: ويقوم المتعلم وفق هذا النمط بتأمل كل خطوة يجريها قبل الانتقال إلى الخطوة اللاحقة، ولا يتسرع باتخاذ القرارات، ويفكر قبل اتخاذها، وهو دقيق في إعداد التقارير، والمتعلمون يتعلمون بصورة أفضل باستخدام الحاسوب، والمناقشة، والمشاهدة، والقراءة الذاتية، والاستماع للعروض النظرية والعملية.

٣- **نمط التعلم النظري (Theorist)**: ووفق هذا النمط يتابع المتعلمون القضايا المعقدة بصورة منطقية، ولديهم الحجج التي تدعم مواقفهم، ويحتاجون إلى وقت كاف لاكتشاف العلاقات بين الأفكار والمواقف والربط بينها، ويفضلون الفعاليات المتمثلة بالتحليل النظري والتدرب على التمارين المحلولة، والتدرب الفردي، والاستماع إلى المحاضرات، والتعلم الذاتي، ومشاهدة الفيديو.

٤- **نمط التعلم النفعي (Pragmatist)**: ويميل أصحاب هذا النمط إلى التفاعل المباشر مع المواقف وتجريبها، ويحبون التعزيز، كما يفضلون التعلم بالأنشطة التي تربط بين النظرية والتطبيق. ويفضل أصحاب هذا النمط التعلم المباشر، ومناقشة حل المشكلات ضمن مجموعات صغيرة ومنظمة توزع فيها الأدوار، ويفضلون عمل المشروعات.[١٨]

وتجدر الإشارة إلى أن أفضل أنواع التعلم هو التعلم الذي يثير التفكير، ويعمل على تنمية القدرات الابتكارية، إذ من غير التفكير قد يتحول التعلم إلى تحصيل للمعرفة بطريق الحفظ والتذكر والاسترجاع، وهو تعلم مخفق لا يعين صاحبه على مواجهة المواقف الجديدة، ولا يحقق تعديل سلوكه في الاتجاهات المناسبة، ولا يسهم في بناء الثقافة ونمو الفرد والمجتمع.

---

(18) Honey, P.and Mumford, A.The learning styles questiomaire, Peter Honey publication, maidenhead, Berkshire.U.K, 2000

ومن هنا كان لابد من تغيير جذري في أنماط التعلم والتحول من الكم إلى الكيف، ونقل بؤرة الاهتمام من التعليم إلى التعلم، ومن المعلم إلى المتعلم، ومن الحفظ والاستظهار إلى التفكير، والتأمل، والتخيل، والابتكار.

ولقد اهتمت التربية الحديثة بآراء المتعلمين حول العلم، والمعرفة العلمية، والثقافة العلمية، مع الأخذ بالحسبان أن تلك الثقافة قد تستقى من منابع متعددة، أسرةً ومعلماً ومناهجَ ومجتمعاً...الخ. واتفق معلمو العلوم على أن تدريس العلوم يجب أن يطوّر فهم المتعلمين للمفاهيم العلمية، ويكسبهم اتجاهات إيجابية نحو العلم، تساعدهم على تطوير فهم كافٍ لطبيعة العلم، واكتساب معتقدات إيجابية تجاه العلم.

ووقفت بعض البحوث على قياس الاتجاهات العلمية أي المعتقدات والآراء حول العلم تمكن صاحبها من اتخاذ موقف بالرفض أو تأكيده. وغالباً ما يصمم مقياس الاتجاهات العلمية على شكل فقرات تعرض كل منها موقفاً مثيراً للمتعلم، يتضمن عرض ظاهرة معينة، أو حادثة واقعية أو خيالية، ويلي كل فقرة ثلاثة أبدال، يمثل أحدها موقفاً إيجابياً يدل على أن الطالب يمتلك درجة إيجابية من الاتجاه، وقد يقيس الاختبار الأبعاد التالية:

١- الاستفسار والاستطلاع.

٢- المنطقية والعقلانية وتأجيل الحكم حتى تستطلع أبعاد الموضوع.

٣- الانفتاح العقلي.

٤- الموضوعية والنزعة التجريبية.

٥- الأمانة العلمية والتواضع العلمي والنزاهة العلمية.

ولو حاولنا رصد معايير الثقافة العلمية التي على النظام التعليمي التعلمي إكسابها للمتعلمين وتعزيزها لديهم بغية الإسهام في خلق مجتمع المعرفة ومواكبة روح العصر بزاد علمي كاف للفهم، والتمثل، والاستيعاب، والإبداع، والابتكار، فإننا نلاحظ أن من هذه المعايير:

١- الابتعاد عن أحادية الرأي.

٢- التواضع المعرفي.

٣- الأمانة العلمية، والاستقلالية.

٤- الانضباط المنهجي، والدقة العلمية.

٥- أخلاقيات العمل وجودته.

٦- بث روح المبادرة، والابتكار، والبحث، والاختراع.

٧- توليد الدوافع الذاتية للمتابعة المعرفية، والتزود بالعلم.

٨- تكريم العلماء والمبدعين في مجالات العلوم والثقافة، وإبرازهم على أنهم قدوة، يحتذى بها.

٩- تأصيل مفهوم المجتمع الدائم التعلم.

١٠- إذكاء حماسة المجتمع للعلوم والتقانة.

١١- تحفيز القدرة على التساؤل، وتنمية القدرة على النقد، والتحليل، والمقارنة، والاختيار، وتطوير مهارات التفكير العلمي.

١٢- تأصيل القيم الديمقراطية، والانفتاح على الثقافات الأخرى واحترامها.[١٩]

وإذا لم يكن ثمة تناغم وانسجام بين جميع البيئات التي يتفاعل معها المتعلمون فإن اكتساب تلك المهارات لا يمكن له أن يتحقق، فإذا كانت المدرسة تعمل على بناء الفكر العلمي في الوقت الذي تعمل فيه الأسرة الأمية على غرس الترّهات والتفكير الخرافي في العقول فإن البنيان يتعرض إلى التصدع والانهيار. ومن هنا كان اعتماد استراتيجية واحدة تنطلق منها الجهات المعنية بتربية النشء يساعد أيما مساعدة على تحقيق الأهداف المرسومة للتربية السليمة المتوازنة والمتكاملة والمساهمة في نهضة المجتمع، وتقدمه، وارتقائه.

خامساً- من أساليب النهوض بواقع الثقافة العلمية في الوطن العربي

---

(١٩) الدكتور محمد عبد الباري القدسي- أدب وثقافة- مرجع سابق ص١٠.

أبانت استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي[٢٠] أن الدول العربية ماتزال تفتقر إلى الإعلام العلمي والتقاني، الهادف، والمؤثر من خلال وسائل الإعلام المختلفة، والذي يعكس مدى التقدم العلمي والتقاني الجاري في العالم، وتبيان أثره في التقدم العلمي والتقاني للمجتمع العربي، إذ ما يزال وعي المجتمع العربي بأهمية الثقافة العلمية والتقانية محدوداً، كما أن هنالك اهتماماً ضعيفاً بالثقافة العلمية والتقانية في الدول العربية، وندرة في الاهتمام بالتعاون والتنسيق بين الجهات ذات العلاقة بتبني الثقافة العلمية والتقانية في الدول العربية وخاصة في مجال التنمية البشرية، وقلة في الدراسات المتعمقة لمعالجة الأمية الالكترونية المعاصرة.

ولقد حددت الاستراتيجية الأهداف المرجوة على النحو التالي:

١- تنمية القاعدة العلمية والتقانية المتطورة.

٢- تكوين الثقافة العلمية والتقانية الأساسية، لأن أي تقدم علمي يبقى قاصراً، وغير مترسخ على أساس متين، وغير قابل للاستمرار، مادام في منأى عن قطاعات الشعب ولغته وثقافته، وهذا يقتضي:

أ- نشر الثقافة العلمية والتقانية على أوسع نطاق بين الجماهير.

ب- تكوين الإنسان العربي العقلاني، القادر على استخدام المنطق العلمي في ممارساته اليومية.

ج- تحفيز كل الطاقات الممكنة، وعلى مختلف المستويات الرسمية، والأهلية، ذات العلاقة بالأنشطة التعليمية، والتربوية، والإعلامية، والثقافية، لنشر الثقافة العلمية والتقانية.

د- وضع العلم في مركز الصدارة على صعيدي الفكر والعمل.

هـ- كسر الحواجز، وتذليل العقبات، أمام انتشار الفكر العلمي.

٣- إيجاد الأسس العلمية لتكوين المناخ الملائم للإبداع والابتكار.

٤- تعزيز دور اللغة العربية، وتطويرها، لتستجيب للتقدم العلمي والتقاني في الحاضر والمستقبل.

---

(٢٠) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي- تونس ١٩٨٨.

وما دمنا في صدد البحث في الارتقاء بواقع الثقافة العلمية في الوطن العربي فإن هذا المسعى يعتمد على الركائز التالية:

١- الدراسة العلمية للمجتمع، تحدد فلسفته، وقيمه، وآماله، وآلامه، ومشكلاته، وتصور واقعه، واتجاهات نموه الشامل، اقتصادياً، وصحياً، وتربوياً، وثقافياً...الخ. أي في جميع الميادين والقطاعات.

٢- الدراسة العلمية للناشئة في جميع أعمارهم، ومستوياتهم، تحديداً لمطالب نموهم، واستعداداتهم، ودوافعهم، وسائر إمكاناتهم.

٣- الدراسة العلمية لطبيعة الثقافة المعاصرة، وروح العصر، وما يتسم به هذا العصر من سمات.

٤- اعتماد الأسلوب العلمي في دراسة الخطط، وتقويم الواقع.

٥- التخطيط العلمي الدقيق الذي يأخذ بالحسبان الأهداف، والظروف، والإمكانات، ويعتمد على بيانات علمية دقيقة، ويتسم بالشمولية والواقعية، والمرونة، والتوازن.

٦- خضوع التطوير للمتابعة العلمية، والتقويم المستمر، تمهيداً لمزيد من التطوير، مسايرة لركب الحضارة والثقافة في عصر التغير المتلاحق والمستمر.

ويقتضي الاهتمام بالتفكير العلمي، والتخطيط له في العملية التعليمية التعلمية:

١- العناية بتدريب الناشئة على استخدام الأسلوب العلمي في حل جميع ما يواجهونه من مشكلات في داخل المدرسة وخارجها.

٢- مساعدة الناشئة على اكتساب الاتجاهات العلمية المناسبة، وفي مقدمتها التحرر من الخرافات، والأثرة، والتحيز، والتعصب، وسعة الأفق العقلي، وتقبل النقد، والبحث عن الحقيقة لذاتها.

٣- تدريب الناشئة على التخطيط العلمي، إن ما يتم منه على المدى القريب، أو على المدى البعيد.[٢١]

---

(٢١) الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان- المناهج المعاصرة- مرجع سابق ص٦٣.

٤- الربط بين العلم والعمل والنظرية والتطبيق، ذلك لأن العلم النظري دون تطبيق روح بلا جسد، والتطبيق العملي دون علم يستند إليه جسد بلا روح.

وعُني بعض الباحثين في ميدان الثقافة العلمية بوضع مشروع للارتقاء بهذه الثقافة على الصعيد العربي، فحدد الغايات التفصيلية لهذا المشروع على النحو التالي:[٢٢]

١- تفجير الكوامن التعبيرية الثرة في لغتنا العربية، لغة الضاد.

٢- إتقان فن الاستعمال المعبر الدقيق للغتنا العربية، وإزالة ما علق بها من غبار الركود والتخلف التاريخي، والاستبداد، والسبات الحضاري.

٣- إبراز العلم بوصفه فكراً، وتقانة، وإنتاجاً اجتماعياً رفيعاً، أي إبراز المنظومات الاجتماعية والفكرية للعلم، والكيفية التي تركب بها النظريات، والمفهومات العلمية، وتختبر بها الأفكار العلمية.

٤- إبراز العقلانية العلمية التي تشكل المرجعية الأساسية للممارسات العلمية، وبيان جوهرها المتمثل في العلاقة الجدلية بين النظرية والقياس المقداري الدقيق، وبيان أن العلم لا يعتمد أساساً له سوى العقل العلمي.

٥- إبراز أدوات الممارسة العلمية، ومعناها، وشرعيتها، مثل الاستنتاج، والاستقراء، والاشتقاق، والتركيب الجدلي، والاختبار العملي، والاختبار المخيالي، والنقد، والملاحظة الذكية. أما التركيب الجدلي فهو بناء المفهومات الجديدة عبر حل التناقضات القائمة بين المفهومات القديمة، ويعني الاختبار المخيالي تصور حالات تجريدية متتالية لاختبار الأفكار ومعقوليتها، ويعني النقد تفكيك الأفكار وبيان حدودها، وتناقضاتها وبناها الداخلية، وعلائقها. وتعني الملاحظة الذكية قراءة الحقائق الكبرى في الفروق المقدارية الصغيرة، مثل قراءة حقيقة كروية الأرض، ومقدار محيطها من ملاحظة الفرق الصغير في رؤية الظل بين

---

(٢٢) الدكتور هشام غصيب- ثقافة البحث العلمي- مشروع الثقافة العلمية- الحوار المتمدن- العدد ٣٤٤٩ عام ٢٠١١.

الإسكندرية وأسوان في مصر، وملاحظة أن الحركة الدائرية هي نوع من السقوط الحر. ويعني الاستقراء فن التعميم السليم.

٦- إبراز الأفكار العلمية الثورية وتحدياتها الفكرية، وأصولها الفكرية والتجريبية كفكرة التطور في علم الحياة (البيولوجيا)، وفكرة الزمان في النسبية.

٧- إبراز المنظومات الفلسفية للممارسة العلمية.

٨- إبراز طبيعة الإنتاج العلمي وكيف يشتغل العلماء إبداعياً على موروثهم العلمي، وبه من أجل تطويره، وإن عملية الخلق العلمي تفترض تأهيلاً صارماً للعالم، مثل إلمامه العميق بموروثه العلمي، وأدواته، ومواكبة آخر التطورات في الإنتاج العلمي، والالتزام الأخلاقي والوجداني بالعمل العلمي.

وإذا كان نشر الثقافة العلمية والتقانية يستلزم خلق مناخ علمي عام للحث على ممارسة العلوم والإبداع والابتكار العلميين، ومحاربة عوائق انتشار الفكر العلمي ومنها الأمية، ودعم فكرة التخطيط والعقلنة في المجتمع العربي، وتحويل هذا المجتمع إلى مجتمع تواصلي معرفي، وإعادة النظر في برامج الإعلام المقروءة، والمسموعة، والمرئية، بغية تعميق الفكر العلمي لدى المواطنين، وردم الهوة بين المجتمع العلمي، والعامة باستخدام الثورة المعلوماتية، وتمكين الجمهور من مناقشة الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية للعلم، على أن يصبح الشعب ذا طبيعة تقانية علمية ومؤهلاً مهنياً، وتأهيل العلماء في المجالات الحيوية خارج تخصصاتهم، والانخراط في المؤسسات العلمية الرسمية وغير الرسمية والمنظمات والجمعيات والاتحادات والنقابات، ونقل الإرث العلمي والمهاري المكتسب من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، فإن تبسيط العلوم ونشرها مع الأخذ بالحسبان الفئات المستهدفة من حيث الشريحة العمرية، والمستوى الثقافي، والمهني، يكون بـ :

أ- الاهتمام بنوادي العلوم والمتاحف القومية العامة والمتخصصة، وجعلها مكوناً رئيساً في الأنشطة التعليمية اللاصفية.

ب-تشجيع المسابقات العلمية بين مختلف الفئات، ووضع حوافز مجزية للمتميزين.

ج- التوسع في عرض سيرة العلماء العرب البارزين القدماء والمعاصرين في مختلف المجالات.

د- توفير الكتب العلمية المبسطة بأسعار في متناول الجميع.[٢٣]

هـ- التركيز على الأطفال، والشباب، لتشكيل رؤى علمية لديهم في سنوات مبكرة من حياتهم لتعميق المبادئ، والمدارك العلمية.

و- الإكثار من الرحلات العلمية، والمحاضرات، والندوات العامة.

ز- إشاعة ثقافة الشابكة (الإنترنت) نظراً لأهمية هذه الوسيلة الفعالة في إتاحة تفاعل الفرد مع المعلومة، وتعدد مصادرها، وسهولة الحصول عليها، وفتح آفاق الاطلاع الواسعة، وهذا الأمر يستلزم إنشاء المواقع العربية ذات الطرح الجذاب والمهتمة بالتوعية العلمية التي تستهدف مختلف الفئات والشرائح في المجتمع.[٢٤]

مع الأخذ بالحسبان أن على من يتعامل مع الشابكة أن يكون قادراً على التمييز بين الإيجابي والسلبي في مضمون المواد المبثوثة عبرها.

ونخلص من العرض السابق إلى أن الثقافة العلمية هي من ضرورات العصر ـ ومتطلباته، وهي شأن مجتمعي، وعلى جميع قطاعات المجتمع العامة والخاصة أن تضطلع بدورها في ترسيخ هذه الثقافة في جميع مناحي الحياة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلقى عبء القيام بهذه المهمة على كاهل جهة واحدة، ذلك لأن ما يبنى من طرف في مجالات التوعية العلمية يتعرض إلى الهدم من طرف آخر إذا لم يكن ثمة تنسيق بين جميع الجهات والأطراف والهياكل الاجتماعية التي يتفاعل معها المواطنون.

---

(٢٣) الدكتور محمد عبد الباري القدسي- قراءة في نشر الثقافة العلمية والتقانية- مرجع سابق ص١١.

(٢٤) الدكتور خضر محمد الشيباني- الثقافة العلمية مفتاح التقنية- مرجع سابق ص٢٧.

مراجع البحث

أ- المراجع العربية:

١- الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان- المناهج المعاصرة- دار الفلاح- الكويت ١٩٩٢.

٢- شحادة الخوري- أوراق ثقافية- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق ٢٠١٢.

٣- الدكتور محمد خضر الشيباني- الثقافة العلمية مفتاح التقنية – مجلة العلوم والتقنية- العدد (٥٥) عام ٢٠١١.

٤- الدكتور محمد عبد الباري القدسي- قراءة في نشر الثقافة العلمية والتقانية- صحيفة ٢٦ سبتمبر العدد ١٣٠٢ تشرين الأول ٢٠١١.

٥- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا الثقافة- مطبعة العجلوني- دمشق- ٢٠٠٢.

٦- الدكتور محمود أحمد السيّد- مقالات في الثقافة- وزارة الثقافة- دمشق- ٢٠٠٤.

٧- الدكتور محمود أحمد السيّد- التراث بين الماضي الحي والغد المنشود- مجلة العرب- دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع- الرياض- ٢٠١٠.

٨- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير العلوم والتقانة- تونس ١٩٨٨.

٩- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- الخطة الشاملة للثقافة العربية- إدارة الثقافة- تونس ١٩٩٠.

١٠- الدكتور هشام غصيب- ثقافة البحث العلمي- مشروع الثقافة العلمية- الحوار المتمدن- العدد ٣٤٤٩ عام ٢٠١١.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Gibbons, B,A «Supporting Elementary science Education for English learning: A constructivist Evaluation instrument» The journal of Educational Research 96 (6), 2003.

2- Hony, P.and Mumford, A. The learning styles questiomaire, Peter Honey pubbication, maidengeard, Berkshire. U.K.2000.

3- Mackee, j. and ogle, D. integrating instruction literacy and science, NY: Guilford Publications. 2005.

الفصل الثاني

خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية *

(*) بحث ألقي في المؤتمر السنوي التاسع لمجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠١٠.

الفصل الثاني

خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية

إذا كان أبو حيان التوحيدي يقول «إن صرح العلم لا يعلو إلا باطلاع الأواخر على علم الأوائل وإدراكهم ما فاتهم منه» فإن ثمة مؤتمراً عقدَ من قبل في بنغازي عام ١٩٩٠ وعنوانه «الكتابة العلمية باللغة العربية»، إلا أن معظم بحوثه ركزت على المصطلحات انطلاقاً من أن تعريف المصطلحات العلمية هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يعنى باهتمام خاص، وذلك بتحديد الكلمات التي تعبر عن المفهوم العلمي لكل مصطلح علمي جديد بألفاظ يمكن كتابتها ونطقها باللغة العربية، ومن ثم العمل على إشاعة المصطلح وانتشاره في أوساطه الخاصة وتداوله في المادة المطبوعة وقاعات التدريس، لأن ذلك يعد حجر الزاوية في عملية التعريب على مستوى الوطن العربي وفي مسيرة التقدم الحقيقي.

أما مؤتمرنا الحالي الذي يحمل العنوان نفسه فلن يتناول موضوع المصطلح بعمق على النحو الذي تم تناوله في مؤتمر بنغازي، وإنما تناول البعد الحضاري للكتابة العلمية وأهميته والكتابة العلمية قديماً وحديثاً وخصائص الكتابة العلمية باللغة العربية ومشكلاتها...الخ.

ويجيء بحثنا «خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية» لينضوي تحت أحد محاور المؤتمر، وقد اشتمل البحث على مدخل تعريفي بالمصطلحات، ثم ركز على خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية.

أولاً- مدخل تعريفي

يفرق الباحثون بين الأسلوبين الأدبي والعلمي، من حيث إن الأسلوب الأدبي يصور فيه الكاتب أفكاره على نحو تظهر فيه مشاعره وعواطفه وأحاسيسه، ويلجأ إلى الصور والأخيلة ليغلف فيها فكره، ويستعين بالتلوين الصوتي والجرس الموسيقي في بعض ألفاظه الموحية، في حين أن الأسلوب العلمي ينأى عن العاطفة والانفعال والخيال المجنح والكلمات ذات التلوين الصوتي والجرس الموسيقي، فيعرض لأفكاره بكل موضوعية مستخدماً اللغة العلمية، وهي اللغة المكونة

من ألفاظ وتراكيب ومبان، والمتسمة بالوضوح والدقة والإيجاز، والموظفة المصطلحات الموحدة، وهي التي تركز على شدة الوضوح في المعنى بتجنب الترادف، وتوظف المصطلحات الموحدة معتمدة على المنطق، وتقتصد في التعبير، وتستخدم الرموز البيانية التوضيحية والجداول والمعادلات الرياضية إذا اقتضى الأمر ذلك[1].

ويؤكد بعض الباحثين توضيح لغة العلم على النحو التالي:

١- الوضوح الذي لا يحمل اللبس، فالغرض الأساسي للغة العلم هو تفسير ظاهرة أو شرح طريقة، ولا يمكن تحقيق ذلك بلغة غير صريحة وواضحة أو بكلمات مبهمة غير محددة المعنى.

٢- سلامة البنيان اللغوي والإيجاز، ولتحقيق الإيجاز يتم اللجوء إلى:

أ- الرموز وهي عادة من حروف الهجاء تستخدم للتعبير عن أشياء متعارف عليها كرموز العناصر الكيماوية ووحدات القياس وما إلى ذلك.

ب- المعادلات الرياضية: وهي صيغ رمزية للتعبير عن علامة معينة أو قانون

ج- الرسوم: وهي رسوم تخطيطية توضح بنية معينة كالدوائر الكهربائية أو الإنشاءات المعمارية، أو التصميمات الهندسية، أو الاتحادات الكيماوية، كما تستخدم أيضاً لتوضيح عمليات معينة.

٣- المصطلحات: والمصطلح العلمي كلمة أو أكثر يتم الاتفاق على تخصيصها لتعني مفهوماً محدداً[2].

وتجدر الإشارة إلى أنه عندما نتحدث عن علمية اللغة العربية فإننا «نؤكد إمكانات العربية في التعبير عن المفاهيم الدقيقة في مختلف التخصصات، ونركز على وضع المصطلحات العلمية،

---

(١) الدكتور صالح بلعيد- اللغة العربية والتعريب العلمي- مجلة التعريب- السنة التاسعة- العدد الثامن عشر- دمشق ١٩٩٩ ص٢٠.

(٢) رمضان هدارة- لغة العلم- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨١- الجزء ٤٧ ص١٣٠-١٣١.

وطريقة أداء الرموز والمختصرات في اللغة العربية، وعلى ضبط الصيغ والعمليات الرياضية في علم الحساب وعلوم الهندسة والتقانة، والتعامل مع الحاسوب والرسوم والمخططات والأشكال الإيضاحية، وإحكام كتابة الأرقام ووحدات القياس ومسميات الأعداد الكبيرة والكميات فائقة الدقة»[٣].

ويرى الباحثون أن لكل من الأدب والعلم مجاله في المعرفة الإنسانية، فالعلم مجاله الواقع ينقب فيه عن قوانينه وأدلته، والأدب مجاله علاقتنا بالواقع وإحساسنا به، فالعالم لا يصدر في علمه عن نفسه، وإنما يصدر عن الواقع الخارجي ليثبت ما يريد إثباته من القوانين في الطبيعة وغير الطبيعة مقيداً بالمنطق العقلي وأدلته وبراهينه وتفاصيله السليمة ومقدماته السديدة وتجاربه. أما الأدب فلا يعبأ بذلك كله، إذ إن الأدب ذاتي والعلم موضوعي، فالعلم يتناول حقائق الواقع محاولاً أن يصفها كما هي غير مضيف إليها أي شيء من داخله أو من مشاعره وتصوراته. أما الأديب فلا يهمه الواقع ولا حقائقه وقوانينه، وإنما تهمه نفسه وحقائقها الوجدانية ودخائلها الشعورية[٤].

بيد أن ثمة قواسم مشتركة بين الأدب والعلم تتجلى في أن كلاً منهما يهدف إلى تحقيق غايات إنسانية، إذ إن الفيلسوف والمشتغل بالعلوم الاجتماعية والفنان والكاتب ورجل العلم، كل هؤلاء أشقاء في قرارة نفوسهم، وسواء أكانت طريقتهم في كشف النقاب عن التجارب الإنسانية وتحليلها أم في تنظيم الظواهر القابلة للقياس وصولاً إلى صوغ المبادئ فإن بواعثهم ونوع تجاربهم وقناعاتهم إنما تتأصل في إنسانية واسعة التعريف[٥].

---

(٣) الدكتور دفع الله الترابي- علمية اللغة العربية وكفايتها لنقل العلوم ونشرها- ندوة تعريب التعليم والتنمية البشرية- الجزائر ١١-١٣ أكتوبر ٢٠١٠.

(٤) الدكتور شوقي ضيف- في النقد الأدبي- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٦٢ ص٦٩.

(٥) صموئيل رايورت وهيلين راتب- العلم معنى وطريقة- ترجمة أحمد بنونة ومراجعة الدكتور كامل منصور- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٦٨ ص٥٤.

وإذا كان الأدب يمجد القيم الإنسانية ويدعو إلى الحق والخير والجمال فإن الروح العلمية تدفع الإنسان إلى أن يتحرك بحرية نحو الحقيقة مهما يكن الطريق الذي يؤدي إليها. ورجالات العلم جميعهم يتحدثون بلغة عظيمة واحدة هي لغة الأفكار، والكشوف الإنسانية في الفيزياء والرياضيات وغيرها والتي يتوصل إليها العلماء هي ملك للإنسانية، ولا يمكن للعلم أن يكون متحيزاً مهما يكن لون جلد الإنسان ومهما تكن سياسته أو طبقته الاجتماعية، فعالم الأحياء الروسي يتعاون تعاوناً مثمراً مع زملائه الأمريكيين الذين يعملون في المجال نفسه، والعلم يحكم على الأفكار في حد ذاتها، ولا يسأل عمن يسير في ركاب هذه الأفكار، فهو لا يعرف حدوداً حزبية ولا طوائف ولا تقاليد، والانحرافات الأساسية عن المثل العليا والمعتقدات التي كانت سبباً في هدم الروابط بين البشر على مر التاريخ ليس لها من معنى في نظر العلم، إذ إن السيادة التي يمنحنا العلم إياها على الطاقة والأشياء المادية قد تدفع بجنسنا البشري إلى حتفه ما لم تتسم بالحكمة والتعقل لتسيطر على السبيل الذي تسير فيه[٦].

ومادامت الغايات التي يرمي إليها كل من الأدب والعلم واحدة في إنسانيتها ونبل مراميها الإنسانية كانت الكتابة العلمية باستخدام اللغة العلمية واحدة في ميدان الأدب والعلم، وليس ثمة من فروق في اللغة العلمية إن في مجال الأدب أو في مجال العلم، فما خصائص الكتابة العلمية؟

ثانياً- خصائص الكتابة العلمية باللغة العربية

إن الكاتب في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية أو في ميدان العلوم البحتة والتطبيقية ينبغي له أن يتسم بسمات معينة تتمثل في الأمانة العلمية والتواضع في منأى عن الادعاء والغرور وتقبل النقد والاعتراف بالحقيقة إذا تجلت أمامه في منأى عن المكابرة، والموضوعية في إصدار الرأي والحكم في منأى عن التحيز والتعصب.

١- الأمانة العلمية في الاقتباس والشواهد ورد الفكر لأصحابها:

(٦) المرجع السابق.

تعد الأمانة العلمية بسملة الكتابة العلمية، وعلى كل كاتب أن يتسم بها وأن يكون صادقاً مع نفسه ومع الآخرين، إذ إن العالم الحق لا يكون إلا صادقاً، ذلك لأن الخائن لا يؤتمن، ومن لا يؤتمن لا يؤخذ عنه علم كما جاء في المقالة الأولى من كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان[٧].

واتهام كاتب علمي بالغش يماثل في الخطر تقريباً الادعاء بأن رئيس الأطفائيين مصاب بهوس الحريق، أو أن الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر موئل لمصاصي الدماء. والغش العلمي يثير استنكار كل من يسمع به، والحادث الأكثر شهرة في هذا المجال هو تصرف السير «سيريل بورت» رائد اختبارات الذكاء، إذ إنه اكتشف بعد موته أنه زيف قسماً من معطياته التجريبية ليجعلها ملائمة لفرضياته، وما هو أقرب إلينا غش «سومر لن» وهو باحث مشهور في معهد سلوان- كترنغ في نيويورك، وقد أراد أن يبرهن لرئيس فريقه الدكتور «روبرغود» أنه يمكن تطعيم أجزاء من جلد الفئران السود على ظهر الفئران البيض، وهذا يعني أن ثمة تقدماً كبيراً في زراعة الأنسجة. وبعد بضعة أشهر أطلع «سومر لن» رئيسه «غود» على فئران بيض مبقعة بشعر أسود، وقد آمن «غود» المستعجل والمشغول دائماً بذلك دون أن يدقق في فحص الفئران، ولكن زملاء «سومر لن» في العمل وقد شكوا في النتيجة، اكتشفوا الغش، وكان فاحشاً، فقد دهن «سومر لن» الفئران البيض بوساطة قلم لباد، وكاد «غود» رئيس الفريق أن يفقد وظيفته وترك المعهد بعد ذلك. أما «سومر لن» فلم يقتصر الأمر على إجباره على الاستقالة، بل حظر عليه نهائياً البحث العلمي[٨].

وإذا كانت بسملة الأمانة العلمية تحتم على الكاتب أن يرد الفضل إلى ذويه، وأن ينسب القول إلى أصحابه، فإن الذروة في الأمانة العلمية تتجلى في الكتابة العلمية عندما يذكر الكاتب فكرة أو مقترحاً كان قد لقفه من حديث عارض بينه وبين كاتب آخر، فلنستمع إلى أستاذنا الدكتور شكري فيصل رحمه الله يقول في كتابه «الصحافة الأدبية»: «أحب أن أقول لكم إن الفضل في شق هذا الطريق

---

(٧) زكي نجيب محمود- جابر بن حيان- مكتبة مصر- القاهرة الفجالة ص٥٠.

(٨) فرناند سفن- العلم والحياة- ترجمة المهندس ميشيل خوري- وزارة الثقافة السورية-١٩٩٨ ص١٤٢.

الجديد بين يدي الدراسة الأدبية –ويعني به تمثل الأدب العربي المعاصر وتكوين فكرة كلية عنه في ضوء ما ينشر في المجلات- يعود إلى الأستاذ الدكتور اسحق الحسيني فهو الذي اقترح علي هذا الموضوع في ذات يوم في العام الماضي في حديث عارض، وقد لقفت هذا الاقتراح لأنه كان في ذهني شيء من هذا الموضوع[٩].

فلقد أرجع الفكرة إلى صاحبها، ولم تكن تلك الفكرة مدونة في كتاب أو في مقال، وإنما كانت قد وردت في حديث عارض.

٢- **عدم الإسراف في النقل**: من المتعارف عليه في أصول الكتابة العلمية أن الاستشهاد بأقوال الباحثين الآخرين يجب ألا يتجاوز الأسطر القليلة، ولا يمكن أن يتجاوز نصف الصفحة، فإذا تجاوز ذلك فيجب أن يوضع في ملاحق مستقلة في نهاية المقالة أو البحث. وبدلاً من إيراد النصوص نفسها يستطيع الباحث أن يلخصها ويذكر النقاط ذات العلاقة بالبحث[١٠].

٣- **استعمال الأسلوب العلمي في الدقة والوضوح**: ويتطلب ذلك أن يكون الكاتب واضحاً في عبارته، مدركاً لما فيها من غموض قبل استعمالها، وأن تتسم المصطلحات التي يستخدمها بالبساطة والوضوح في الدلالة على الفكرة العلمية أو الفنية، والإيجاز والاختصار ما أمكن على أقل عدد من الكلمات والحروف، وأن يكون المصطلح المستخدم موضوعياً في دلالته، وألا يتعدد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل العلمي الواحد، وأن يسمح بالاشتقاق بما لا يضر بكيان اللغة[١١].

وكلما كانت الفكرة واضحة ودقيقة في ذهن الكاتب وبعيدة عن التناقض ومنطقية أمكنه التعبير عنها بوضوح. ومن هنا كان لابد من تلازم النتائج مع المقدمات والتركيز على تحديد

---

(٩) الدكتور شكري فيصل- الصحافة الأدبية- معهد الدراسات العربية- القاهرة ١٩٦٠ ص٩.

(١٠) الدكتور حمزة بن قبلان المزيني- الخلل المنهجي في كتابات الدكتور رمضان عبد التواب اللسانية- شبكة صوت العربية ص٢.

(١١) وليد سراج الدين- اللغة العربية والاصطلاح العلمي- شبكة صوت العربية ص٢.

السبب والنتيجة والاستقراء والاستنتاج والمقارنة والحرص على التتابع وقوة البرهان والأدلة، والتمييز بين الحقائق والمعلومات والادعاءات وتعرف المغالطات. والاستنتاج الصحيح هو الاستنتاج الذي تلزم النتيجة فيه منطقياً من المقدمات، فإذا كانت المقدمات صحيحة فإن النتيجة لابد أن تكون صحيحة، واليقين الذي يقدمه المنطق يمكن أن يسهم في المعرفة إسهاماً كبيراً.

وتجدر الإشارة إلى أن استعمال الجمل الواضحة في التعبير عن الأفكار الواضحة يؤدي إلى الفهم، إذ إن استيعاب المستمع للجمل البسيطة والقصيرة أسهل بكثير من استيعابه للجمل المعقدة، كما أن فهم الجمل الأساسية التي لا تتضمن جملاً فرعية أسهل على الفهم من جملتين إحداهما أساسية والأخرى فرعية، وكلما زاد عدد الجمل الفرعية زادت صعوبة فهم الكلام[١٢].

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الدقة والوضوح في الكتابة العلمية باللغة العربية لا تقتصر على الميادين العلمية وحدها، وإنما تشمل الأدب والعلوم الإنسانية الأخرى، فمن الأمثلة على الأساليب غير العلمية في ميدان الأدب المثال التالي: «ففي سياحة سريعة في حماسة أبي تمام لم أكد أعثر على بيت شعر فيه تشبيه ضمني، وقد وقفت على تشبيهات تمثيلية كثيرة. وفي شعر الشعراء السابقين للعهد العباسي وجدت أن هذا التشبيه كان نادراً إلى حد يلفت الانتباه، فلقد قلبت صفحات ديوان جرير فما عثرت على تشبيه ضمني واحد، وقد أكون مخطئاً في هذا النفي المطلق لهذا الأمر، فأنا لم أقلب كل دواوين شعراء العربية قبل العصر العباسي، ولكنه إحساس عام لا يسهل كتمانه»[١٣].

إن استعمال التعابير «لم أكد أعثر، وقفت على تشبيهات تمثيلية كثيرة، وجدت أن هذا التشبيه كان نادراً، فما عثرت على تشبيه ضمني واحد، أنا لم أقلب كل دواوين شعراء العربية، ولكنه إحساس عام لا يسهل كتمانه» هو استعمال غير علمي، فالأسلوب العلمي يحدد بالأرقام

---

(١٢) الدكتور محمود أحمد السيد- في طرائق تدريس اللغة العربية- منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٨ ص٤٤.

(١٣) الدكتور عمر الساريسي- التشبيه الضمني في شعر العصر العباسي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد ٨٤ الجزء الثالث تموز ٢٠٠٩ ص٧٣٠.

والنسب الإحصائية البيانات والمعطيات ولا يتركها للانطباعات الذاتية والأحاسيس العامة كما ورد في كتابة الباحث.

ومن الأساليب غير العلمية قول الباحث نفسه «يذكر بعض الباحثين، ويرى بعض الباحثين، ويقول أحد الباحثين» ويشير في الهامش إلى مرجع، ولا ندري ما إذا كان صاحب المرجع هو هذا الـ «بعض» أو الـ «أحد» أم أن الباحث المقصود ورد في المرجع وليس هو صاحبه[١٤].

ومن الأساليب غير العلمية قوله «والغريب في هذا الأمر»[١٥] ذلك لأن الأسلوب العلمي ينأى عن الغرابة والدهشة.

ويقول أيضاً: «وثمة مقولة غاب عني مرجعها الآن»[١٦]، كما يقول: «وهذا ما لا أحسب أن أحداً من شعراء العصر العباسي يقترب منه»[١٧].

فالتعابير: «ما لا أحسب أن أحداً يقترب منه، والغريب في هذا الأمر» هي أساليب غير علمية، ذلك لأن الأسلوب العلمي يتصف بدقة التعبير، وترتيب الأفكار، وسرعة الوصول إلى عقل القارئ، والابتعاد عن الخيال، إذ إن غايته مخاطبة العقل وشرح الحقائق وتفسير الغوامض بكلمات بسيطة وفصيحة وجمل واضحة ولكنها دقيقة.

٤- **البعد عن التعميم**: تنأى الكتابة العلمية عن التعميم، ومن الملاحظ أننا نعمم أحكامنا دون تثبت أو تجربة، ونصدر الأحكام على أنها حقائق مطلقة، وهذا المنحى طالما يرد في كتابات بعض الباحثين، إذ ورد في رسالة دكتوراه في التربية «أن المنهج المقترح يراعي ميول التلاميذ وقدراتهم واستعداداتهم في كل ما يقدمه إليهم من معارف مختلفة وأنشطة تعليمية متعددة، كما يشبع حاجات التلاميذ سواء أكانت بيولوجية أم اجتماعية أم نفسية، ويتيح دراسة المشكلات الجديدة

---

(١٤) المرجع السابق ص٧٢٢.

(١٥) المرجع السابق ص٧٢٥.

(١٦) المرجع السابق ص٧٣٤.

(١٧) المرجع السابق ص٧٣٧.

التي تأتي نتيجة التغير السريع في حياة المجتمعات، والتي يكون لها علاقة بحياة الأفراد والجماعات»[١٨].

وجاء في رسالة أخرى «ولا يصح بحال من الأحوال الاستمرار في تراجع التحصيل اللغوي في مدارسنا، وهذا ما رسخ قناعة الباحثين بأهمية الطريقة الوظيفية المقترحة التي تربط التعليم بالحياة، وترسخ التعلم الذاتي، وتمنح الأولوية لاهتمامات التلاميذ المعرفية والقيمية، وإشباع حاجاتهم منهما بما يحقق لهم التوازن والتكيف في بيئتهم داخل المدرسة والمجتمع، إنها الطريقة التي تجعل من التلميذ معلماً ومقوماً لذاته قبل مدرسه، وإنها الأكثر فاعلية بين التلميذ ومدرسه وزملائه، وهي الطريقة القادرة على استيعاب مختلف الطرائق»[١٩]. وأن الموضوعات التي تم اختيارها لهذا الكتاب موضوعات جيدة وجميلة وتهم التلاميذ وتلبي حاجاتهم[٢٠].

فهذه الأحكام العامة التي أطلقها الباحث في رسالته من حيث إن المنهج الذي اقترحه يراعي ميول التلاميذ وقدراتهم واستعداداتهم ويشبع حاجاتهم، ويتيح دراسة المشكلات الجديدة، تحتاج إلى تجارب للتثبت من صحتها.

كما أن الأحكام التي وردت في كتابة الباحثة من حيث إن طريقتها المقترحة تربط التعليم بالحياة، وترسخ التعلم الذاتي، وتشبع حاجات التلاميذ المعرفية والقيمية، تحتاج هي الأخرى إلى تجارب علمية للتثبت من صحتها، والأمر نفسه ينطبق على أحكامها على الموضوعات التي تم اختبارها.

وإذا كانت الكتابة العلمية لا تعرف التعميم وتنأى عنه فإن الحذر العلمي تؤكده وتركز

---

(١٨) الدكتور عبد الله حسون العلي- المنهج التكاملي وتقويم أثره في تدريس اللغة العربية- رسالة دكتوراه غير منشورة كلية التربية بجامعة دمشق ٢٠١٠ ص١٣٠.

(١٩) الدكتورة وفاء أحمد العيسى- فاعلية برنامج تدريسي معد وفق الطريقة الوظيفية في تدريس الأدب والنصوص- رسالة دكتوراه غير منشورة- كلية التربية بجامعة دمشق عام ٢٠٠٧ ص٥.

(٢٠) المرجع السابق ص١٥٨.

عليه.

٥- **الحذر العلمي**: طالما نلاحظ أن ثمة باحثين يردون السبب في مشكلاتهم التي يعالجونها إلى مؤثر واحد أو عامل واحد، وهذا لا تعرفه الكتابة العلمية الدقيقة التي تحتاط وتتسم بالحذر في التفسير والتعليل فتستخدم أساليب من مثل:

- قد يرجع السبب إلى كذا
- وأغلب الظن أن هذه يرجع إلى كذا
- ولا يمكن إغفال عوامل أخرى قد يكون لها تأثير في الموضوع.

ومن الأساليب غير العلمية التي تنأى عن الحذر العلمي:

- «ويمكن إرجاع النتائج إلى أن التلاميذ الذكور في المجموعة الأولى درسوا الأدب والنصوص وفق الطريقة الوظيفية»[٢١].

- «والسبب في ذلك يعود إلى أن الإناث أكثر ميلاً إلى الحفظ، وأكثر قدرة على التذكر»[٢٢].

- «ويمكن تفسير ذلك بمضي خمسين يوماً على تطبيق الدروس والاختبار»[٢٣]

- «ويمكن إرجاع النتائج إلى أن تلاميذ المجموعة التجريبية قد درسوا الأدب وفق الطريقة الوظيفية الكاملة»[٢٤].

- «ويعود ذلك إلى أن معلمي التربية الإسلامية ومعلماتها في الأردن يعدون لمهنتهم وفق خطط تربوية متشابهة، ثم إنهم يمارسون عملهم في بيئة واحدة، ويتعرضون لذات الخبرات

---

(٢١) المرجع السابق ص٣٥٢.

(٢٢) المرجع السابق ص٣٥٧.

(٢٣) المرجع السابق ص٣٥٥.

(٢٤) المرجع السابق ص٣٨٨.

التعليمية والتدريبية»[٢٥].

- وقد يغلف الأسلوب بشحنات انفعالية كقول الباحث «وهذا - لعمري - مردّه إلى كذا» وكم تحمل كلمة «لعمري» من شحنة انفعالية.

٦- البعد عن التقرير والتأكيد:

تتسم الكتابة العلمية بالبعد عن التقرير في أسلوبها والتأكيد في أدواتها، وطالما نجد في كتابات الباحثين عبارة «ومما لاشك فيه» كقول الباحثة: «ومما لاشك فيه أن القراءة الجهرية تستخدم المهارات التي تشتمل عليها الصامتة»[٢٦].

«ولاشك أن الحركة التاريخية للاحتجاج تتوجه أنظارها بالمنهج العلمي وتطور ثقافة رجاله»[٢٧].

ومن الواضح أن استعمال «إن» يدل على التأكيد والتقرير، إلا أن بعض الباحثين يكثرون من استعمالها، ويسرفون في هذا الاستعمال، وهذا ما يجعل كتابتهم تنأى عن العلمية، إذ إن الأسلوب العلمي لا يعرف التقرير وأسلوب التأكيد.

ففي بحث عن أخطار الاستعمار الحضاري يقول الباحث «إن أثرياء العرب يعزلون أنفسهم في خانة الصفر على الشمال، وإن معظم الكبار من أثرياء الوطن العربي مغرر بهم بطريقة عجيبة غريبة، إنهم غارقون في اصطياد الوكالات والمناقصات وتنفيذ مشاريع كبيرة تأتي عليهم بالربح الوفير، وإن كثيرين من أثريائنا هؤلاء لاهون عن الجد. إن مصالح أثريائنا مرتبطة

---

(٢٥) الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس- مجلة دراسات في المناهج وطرق التدريس- العدد ١٠١ مارس ٢٠٠٥ ص٣٢.

(٢٦) مها فهد أبو حمرة- صعوبات تعلم اللغة العربية لدى غير الناطقين بها- رسالة ماجستير غير منشورة- كلية التربية بجامعة دمشق ٢٠٠٧ ص٣٧.

(٢٧) الدكتور فخر الدين قباوة- توظيف الحديث الشريف في البحث النحوي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٣ ج٤ ص٨١٨.

بمصالح طبقة الأثرياء العالميين. إن معظم أثريائنا يرمون بعصا الطاعة إلى الأثرياء العالميين أصحاب القرار الممسكين بزمام التقدم العلمي والصناعي والفكري. إن ظهورهم مع أصحاب القرار في مجالس الاقتصاد العالمي لا يجعلهم أنداداً لهم[٢٨].

ففي عدة أسطر استخدم الباحث أسلوب التأكيد سبع مرات، ويتابع بحثه على هذا النحو في الصفحات الأخرى، إذ تتواتر «إن» سبع مرات وثماني مرات في عدة أسطر.

٧- **البعد عن المبالغة في إسباغ الصفات على الأشخاص**: تتسم الكتابة العلمية بالواقعية والبعد عن المبالغة في إسباغ الصفات على الأشخاص، وطالما نلاحظ صفات من مثل «الجليل، الفاضل، العلاّمة، الموسوعي، العالم الفذ،..الخ» في بحوث منشورة من مثل «لقد كان تساؤل الرئيس الجليل وارداً بلغة أهل القانون»[٢٩].

وإن الرئيس الجليل ردّ على هذا الاعتقاد بالآتي: لا يكفي في معالجة القضية المثارة أن ننسب الوهم إلى الإمام السيوطي ارتجالاً دون دليل مقنع، ولاسيما أن المحقق قد ذكر أن ثمة مخطوطة قد نسبت الأبيات إلى ابن مالك، فالسيوطي لم ينفرد بنسبة الأبيات إلى ابن مالك»[٣٠].

ولابد من التنويه بما صنع المحققان الفاضلان، فإنهما –لاشك– قد بذلا جهوداً كبيرة وعانيا معاناة شديدة[٣١].

وفي البحث نفسه يقول الباحث «وصف المحققان الفاضلان المخطوطة واستفادا من وصف من عاينها قبلهما، وسجل ملاحظاته عنها، وسقط من آخرها ورقات قليلة في تقرير

---

(٢٨) الدكتور سامي عصاصة- أخطار الاستعمار الحضاري- جمعية أصدقاء دمشق- تموز ٢٠١٠ ص١٨.

(٢٩) هلال ناجي- القصيدة المتداخلة- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- الجزء الثالث- المجلد الرابع والثمانون- تموز ٢٠٠٩ ص٧١٤.

(٣٠) المرجع السابق ص٧١٣.

(٣١) الدكتور محمد رضوان الداية- كتاب أعلام مالقة- المرجع السابق ص٦٨٦.

المحققين الفاضلين»[٣٢].

وقد ورد في البحث نفسه أسماء محققين آخرين لم تسبغ صفة الفضل عليهما. وتجدر الإشارة إلى أن الألقاب ظهرت بصورة سخية في حياتنا المعاصرة، وبعد أن كان العلماء إبان ألق الحضارة العربية الإسلامية يتسمون بالتواضع، ويذيلون كلامهم بالفقير لله أو راجي الغفران، أصبحنا نلاحظ كتابات تنأى عن الأسلوب العلمي وكأننا في عصر الانحدار، عصر الممالك المتتابعة، ومن هذه الكتابة غير العلمية «العالم العلاّمة والبحر الفهّامة، أو الشيخ الفقيه والعالم النبيه» «هو شيخ الإسلام، علم الأعلام، مفتي الأنام، السيف المسلول على المبتدعين، والقاطع البتار لألسنة المارقين الملحدين».

ويرى أستاذنا الدكتور حامد عمار أن هذا التزيد في الألقاب يمثل هدراً في الورق والحبر والوقت، وأضيف إلى ذلك: «كما يمثل نأياً عن الموضوعية، وبعداً عن الحقيقة»[٣٣].

٨- **البعد عن الغرور**: يتسم الكاتب العلمي الأصيل بالتواضع العلمي والبعد عن الغرور، ذلك لأن الغرور من أكثر الآفات فتكاً بصاحبها فتنأى به عن الطريق العلمي السوي، وقديماً قيل: «يضيع العلم بين اثنين الحياء والغرور».

ولقد كتب عالم النفس الروسي «بافلوف» قبيل وفاته: «ما الذي أستطيع أن أتمناه لشباب أمتي الذين يقفون أنفسهم للعلم؟

أولاً- التدرج، التدرج، التدرج: وإياك أن تبدأ خطوة تالية دون أن تكون قد تمكنت من الخطوة السابقة، ولكن لا يكفي مجرد أداة لتسجيل الوقائع بل حاول أن تنفذ إلى سر حدوثها باحثاً باستمرار عن القوانين التي تتحكم فيها.

ثانياً- التواضع، فإياك أن تدع الغطرسة تستحوذ عليك فإنها تجعلك عنيداً حين تلزم الموافقة، وتمنعك عن قبول المساعدة النافعة الصادقة، وتفقد الروح الموضوعية.

---

(٣٢) المرجع السابق ص٦٨٢.

(٣٣) الدكتور محمود أحمد السيد- مقالات في الثقافة ج٢- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٤ ص٣٨٣.

ثالثاً- الشغف: وتذكر أن العلم يتطلب من الإنسان كل حياته، ولو كانت لديك حياتان لما كانتا كافيتين لك، فكن شغوفاً بعملك وبحثك»[٣٤].

وروي عن «نيوتن» أنه قال قبيل وفاته بوقت قصير: «إنني لا أعرف كيف أبدو في نظر العالم. أما في نظري فإنني أبدو كما لو كنت مجرد صبي يلهو على شاطئ البحر، فأسلي نفسي- من حين إلى آخر بالعثور على حصاة أنعم، أو صدفة أجمل من المعتاد، في الوقت الذي يمتد محيط الحقيقة أمامي مجهولاً تماماً»[٣٥].

وإذا كان التواضع العلمي من أهم سمات الكتابة العلمية فإن الغرور بالمقابل يقتل صاحبه، وينفي عنه سمة العالم، وبقدر سعة المعرفة يزداد المرء تواضعاً، وبقدر قلة المعرفة يكون الادعاء والغرور!!

وفي كتابات بعض الباحثين في حياتنا المعاصرة نلاحظ أن ثمة ادعاء يتجلى في كتابتهم، ومن ذلك قول أحدهم: «صدر كتابي في طبعته الأولى سنة ١٩٧٣ فتلقفه القراء المتخصصون في شتى أنحاء الوطن العربي بيد الرضا والقبول. ولم يدفعني إلى هذا العمل إلا حرص الزملاء والأصدقاء من الباحثين والطلاب على أن أجمع هذه البحوث في كتاب، وبعضها مما تهافت الباحثون على تصوير نسختي الخاصة منه»[٣٦].

ويقول آخر: «أما نحن فقد يسر لنا الله عز وجل أن ندفع الباب ونزيح الفريقين ونقتحم

---

(٣٤) الدكتور محمود أحمد السيّد- في البحث التربوي والتربية الشاملة- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢ ص٢٢.

(٣٥) و. أ. بغردج- فن البحث العلمي- ترجمة زكريا فهمي- دار إقرأ لبنان ١٩٨٣ ص٢٢٠.

(٣٦) الدكتور حمزة بن قبلان المزيني- الخلل المنهجي في كتابات الدكتور رمضان عبد التواب اللسانية- مرجع سابق ص٢.

الميدان الملتهب لنطفئ شعلة الخلاف والشقاق، وننـزع فتائل الخصام والاتهام»[٣٧].

كما يقول في موضع آخر: «ولما يسر الله عز وجل لنا مجالات المتابعة للبحث الجاد المعـرفي، وتتبعنا جذور الشبهات بالفحص والتقويم، انكشف عنا الغطاء، فإذا بصرنا يومئذ جديد، يبـدد الأراجيف والمتاريس والمثبطات»[٣٨].

وطالما لاحظنا أن عدداً من الباحثين يذكرون في مقـدمات بحـوثهم أن بحـثهم يعـد أول بحث في مجاله[٣٩]، وأن الباحثين الآخرين قصروا عن إدراك ما توصلنا إليه.

٩- احترام الرأي الآخر: تتسم الكتابة العلمية باحترام الرأي الآخر وعدم تسفيهه، وإنما تنـاقش الحجة بالحجة والدليل بالدليل والبرهان بالبرهان في منأى عن التحيز والتعصـب. أمـا أن يلجـأ الباحث إلى المهاترات وتسفيه آراء الآخرين على أنها الخطأ، وإبراز آرائه على أنها الصواب، فهـذا ما تنأى عنه الكتابة العلمية.

وإذا ما نظرنا إلى ما ورد في أحد البحوث على النحو التالي:

«وفكرة السليقة أو ما سماه ابن خلدون بالملكة لم تكن واضحة عند جميع الدارسين العرب المحدثين، فهذا محمد كامل حسين يقول: ومن أعجب القواعد التي لا يمكـن أن تكـون سـليقة إعراب «غير» فعليك أن تغيّر الجملة في ذهنك، وأن تضع بدلاً منها «إلا»، ثم تحدد إعراب ما بعد «إلا»، وبذلك يتم لك إعراب «غير» بعد تفكير طويل».

ويعقب الكاتب على هذا القول قائلاً: لولا أن هذا الكلام قد كتب في كتاب يقرؤه الناس

---

(٣٧) الدكتور فخر الدين قباوة- توظيف الحديث الشريف في البحث النحوي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠٠٨ المجلد ٨٣ ج٤ ص٨٤٠.

(٣٨) المرجع السابق ٨٣١.

(٣٩) مها فهد أبو حمرة- صعوبات تعلم اللغة العربية لدى غير الناطقين بها- مرجع سابق ص١٤.

لما جشمنا أنفسنا عناء الرد عليه لتهافته جداً جداً»[٤٠].

فإننا نلاحظ بعد قراءة هذا المقطع أن كتابة الكاتب لا تتسم بالعلمية والموضوعية، وإنما بالتحامل والتسفيه، وهذا لا تعرفه الكتابة العلمية.

وها هو ذا باحث آخر يقول: «نعم إذا كان ما لمسناه في صنيع قدماء النحاة إعراضاً عن الأحاديث النبوية، لما ذكره المثبطون المرجفون وقد ثبت تهافته وتلاشيه، فما أجهلهم بحقيقة الأمر! وما أقصر نظرهم وأتعسهم! وما أضعف نتاج التقعيد والتأصيل والتفريع والاحتجاج والتفسير والتعليل والبيان في أقوالهم!.»[٤١]

ويهاجم الباحث «سيبويه» صاباً عليه عبارات بعيدة عن الكتابة العلمية، إذ يقول: «لقد ضيّع هذا المُرجف «يقصد سيبويه» أجيالاً من النحاة، وصرفهم عن جادة الصواب بما أثار من العجاج والأضاليل، فمنهم من نجا بجلده يواجه الحقائق بجد واقتدار، ومنهم من لبث يجتر مقولات باطل الأباطيل»[٤٢].

ويقول في البحث نفسه: «أما من استسلم للضباب والسحب والأضاليل والأراجيف، ولم يحمّل نفسه أعباء الدرس والتمحيص، فقد لبث في الأخاديد يردد أصداء الشبهات، ويعرقل مسيرة التقويم والتسديد، وينعى علينا وعلى كل نابه ما نغني به الاستدلال النحوي من حجج وشواهد وأمثلة نبوية مكرمة توسع الأفق، وتمد الأفهام والأقلام والألسنة بالفصاحة الرائقة والبيان الواقعي الآني بعيداً عن ضرائر الشعر وتضع النحاة لتعابير غثيثة في التاريخ النحوي

---

(٤٠) الدكتور محمد الحبَّاس- مفهوم الفصاحة عند النحاة العرب القدماء والمحدثين- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٤ ج٤ ص١٠٢٣.

(٤١) الدكتور فخر الدين قباوة- توظيف الحديث الشريف في البحث النحوي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠٠٨ المجلد ٨٣ ج٤ ص٨٢١.

(٤٢) المرجع السابق ص٨٣٢.

المديد[٤٣].

١٠- **العناية بالشكل إلى جانب المضمون:** إذا كانت الكتابة العلمية تتسم بالدقة في الاقتباس والشواهد ورد الفكر لأصحابها، وبالوضوح في اللغة ألفاظاً وأساليب واستخداماً للجمل القصيرة والكلمات المباشرة مع تجنب استخدام الكلمات الزائدة، وبالبعد عن التعميم والحذر العلمي والبعد عن التقرير والتأكيد والمبالغة في إسباغ الصفات على الأشخاص، وبالبعد عن الغرور، واحترام الرأي الآخر، فإن هذه الخصائص كافة ينبغي لها أن تتجلى في إخراج يعنى بعلامات الترقيم بحيث تستخدم في مواضعها بصورة دقيقة، كما تتجلى باستخدام الجداول إذا كانت طبيعة البحث تستلزم استعمال هذه الجداول والأشكال واستعمال الملاحق في مواضعها أيضاً إذا كان ثمة ضرورة لوضع الملاحق.

ثالثاً- توصيات

لا تتأتى الكتابة العلمية باللغة العربية بصورة عفوية تلقائية على قلم صاحبها، وإنما تحتاج إلى مران وممارسة حتى يتمكن صاحبها من امتلاك المهارة، والمهارة لا تكتسب إلا بطريق المران والتوجيه والتعزيز وتوافر القدوة الحسنة. وفيما يلي عدد من التوصيات الرامية إلى النهوض بالكتابة العلمية والارتقاء بها، ومن هذه التوصيات:

١- التدريب على استعمال اللغة العلمية منذ وقت مبكر، وذلك بأن تكون الكلمات دالة على المعاني بكل دقة ووضوح، وأن يكون ثمة ابتعاد عن الشحنات الانفعالية، وتركيز على استخدام المنطق في الاستنتاج، ومناقشة الآراء بكل موضوعية واحترام للرأي الآخر.

٢- تزويد الناشئة من خلال ما يتفاعلون معه من مناشط فكرية بأساليب التفكير العلمي الناقد الموضوعي الذي يميز بين الزيف والحقيقة والخبرة المربية وغير المربية.

٣- استخدام المصطلحات الأكثر شيوعاً وانتشاراً، إذ إنها تفضل على غيرها، واستخدام الكلمات التي تسمح بالاشتقاق على الكلمات التي لا تسمح به.

---

(٤٣) المرجع السابق ص٨٣١.

٤- تعزيز ما يقوم به المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر في مجال ترجمة أمهات الكتب، والعمل على سيرورة الكتب المترجمة ذات الأساليب العلمية وتعميمها على الجامعات والمعاهد للإفادة منها في عملية التأليف وتدريب الطلبة على الصياغة العلمية باللغة العربية في ضوئها.

٥- الإفادة من التراث العلمي العربي والمصطلحات العلمية المستخدمة في الميادين العلمية في التراث ربطاً لماضي الأمة وتراثها بحاضرها ومستقبلها.

٦- تخصيص جوائز لأحسن الكتب المؤلفة باللغة العربية العلمية، وتكريم مؤلفيها.

٧- العمل على وضع مبادئ وتوجهات ومعايير للكتابة العلمية باللغة العربية وتعميمها على أوسع نطاق تمكيناً للكاتبين من استخدام هذه اللغة، والعمل على نشر الثقافة العلمية في جميع مجالات الحياة.

٨- التشدد في منح الدرجات العلمية في الدراسات العليا تشجيعاً للأساليب العلمية في صوغ رسائل الماجستير والدكتوراه، والتشدد في ترقية أعضاء الهيئة التدريسية بحيث يؤخذ بالحسبان مدى التمكن من مهارات استخدام الكتابة العلمية باللغة العربية.

٩- إجراء مسابقات في المدارس لتشجيع الطلبة على الكتابة العلمية باللغة العربية وعلى التعبير الوظيفي، وتخصيص جوائز للفائزين فيها.

١٠- إغناء المكتبات المدرسية بالكتب ذات الكتابة العلمية، واستبعاد الكتب الداعية إلى الشعوذة والترهات والسحر والخرافات.

١١- التعريف بأعلام الكتابة العلمية باللغة العربية ماضياً وحاضراً من حيث نتاجهم الفكري والآثار التي خلفوها، وتقديم نماذج من كتاباتهم.

١٢- تفعيل حركة الترجمة وخاصة ترجمة المصطلحات العلمية والعمل على توحيدها.

١٣- اعتماد تعريب مسميات وحدات التقييس للأبعاد والكيل والميزان، واعتماد الرموز العلمية، ووضع مواصفات شاملة لها مع تعريفاتها، فذلك كله ضروري في مجال الكتابة العلمية باللغة العربية.

مراجع الفصل

الكتب

١- الدكتور دفع الله الترابي- علمية اللغة العربية وكفايتها لنقل العلوم ونشرها- ندوة تعريب التعليم والتنمية البشرية- الجزائر- أوكتوبر ٢٠١٠.

٢- الدكتور زكي نجيب محمود- جابر بن حيان- مكتبة مصر- القاهرة- الفجالة- د.ت.

٣- الدكتور سامي عصاصة- أخطار الاستعمار الحضاري- جمعية أصدقاء دمشق- تموز ٢٠١٠.

٤- الدكتور شكري فيصل- الصحافة الأدبية- معهد الدراسات العربية- القاهرة ١٩٦٠.

٥- الدكتور شوقي ضيف- في النقد الأدبي- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٦٢.

٦- الدكتور صموئيل رابورت وهيلين راتب- العلم معنى وطريقة- ترجمة أحمد بنونة ومراجعة الدكتور كامل منصور- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٦٨.

٧- الدكتور فرناند سفن- العلم والحياة- ترجمة المهندس ميشيل خوري- وزارة الثقافة السورية- ١٩٩٨.

٨- الدكتور محمود أحمد السيّد- في البحث التربوي والتربية الشاملة- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢.

٩- الدكتور محمود أحمد السيّد- في طرائق تدريس اللغة العربية- منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٨.

١٠- الدكتور محمود أحمد السيّد- مقالات في الثقافة ج٢- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٤.

١١- و.أ. بفردج- فن البحث العلمي- ترجمة زكريا فهمي- دار اقرأ- لبنان ١٩٨٣.

المجلات

١- الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس- مجلة دراسات في المناهج وطرق التدريس- القاهرة- العدد (١٠١) مارس ٢٠٠٥.

٢- الدكتور رمضان هوارة- لغة العلم- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة- ج٤٧ عام ١٩٨١.

٣- الدكتور صالح بلعيد- اللغة العربية والتعريب العلمي- مجلة التعريب- السنة

التاسعة- العدد ١٢ دمشق ١٩٩٩.

٤- الدكتور عمر الساريسي- التشبيه الضمني في شعر العصر العباسي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد ٨٤ ج٣ تموز ٢٠٠٩.

٥- الدكتور فخر الدين القباوة- توظيف الحديث الشريف في البحث النحوي- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٣ ج٤/ ٢٠٠٩.

٦- الدكتور محمد الحباس- مفهوم الفصاحة عند النحاة العرب القدماء والمحدثين- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد ٨٤ ج٤ عام ٢٠٠٩.

٧- الدكتور محمد رضوان الداية- كتاب أعلام مالقة- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٤ ج٣ دمشق ٢٠٠٩.

٨- هلال ناجي- القصيدة المتداخلة- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- المجلد ٨٤ ج٣ تموز ٢٠٠٩.

رسائل علمية

١- الدكتور عبد الله حسون العلي- المنهج التكاملي وتقويم أثره في تدريس اللغة العربية- رسالة دكتوراه غير منشورة- كلية التربية بجامعة دمشق ٢٠١٠.

٢- مها فد أبو حمرة- صعوبات تعلم اللغة العربية لدى غير الناطقين بها- رسالة ماجستير غير منشورة- كلية التربية بجامعة دمشق ٢٠٠٨.

٣- الدكتورة وفاء أحمد العيسى- فاعلية برنامج تدريسي معد وفق الطريقة الوظيفية في تدريس الأدب والنصوص- رسالة دكتوراه غير منشورة- كلية التربية بجامعة دمشق عام ٢٠٠٧.

مواقع على الشابكة (الإنترنت)

١- الدكتور حمزة بن قبلان المزيني- الخلل المنهجي في كتابات الدكتور رمضان عبد التواب اللسانية- شبكة صوت العربية.

٢- وليد سراج الدين- اللغة العربية والاصطلاح العلمي- شبكة صوت العربية.

الفصل الثالث

اللغة العربية وتحديات العصر *

(*) بحث ألقي في المؤتمر الماسي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٧.

الفصل الثالث

اللغة العربية وتحديات العصر

في البداية لابد لي من أن أقدم شكراً وتهنئة ومعذرة.

- أن أقدم شكراً لسيادة رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة على دعوته الكريمة لحضور الاحتفال بالعيد الماسي لمجمع اللغة العربية وأعمال الدورة الثالثة والسبعين لأعمال المجمع.
- وأن أقدم تهنئة لمجمع اللغة العربية بالقاهرة بمناسبة الاحتفال بالعيد الماسي متمنياً لهذا المجمع الموقر استمرارية النجاح والألق في تنفيذ المهام الموكولة إليه.
- وأقدم معذرة لأنني لن أتقيد بما ورد في البحث، فقد أختصر، وقد أضيف في ضوء ما يتطلبه المقام من إضافة أو حذف.

سيداتي سادتي:

إذا كان البحتري قد قال في حبيبته علوة الحلبية:

ولو عرف الناس التلاقي وحسنه لحُبِّبَ من أجل التلاقي التفرُّقُ

فإنني أردد هذا البيت أمام حبيبتنا الغالية اللغة العربية الفصيحة وقد تتساءلون: لم هذا الحب؟ وهذا التعلق؟ وهذا الهُيام؟

وأجيب:

إني أحبك كي أبقى على صلة بالله، بالأرض، بالتاريخ، بالزمن

أنت البلاد التي تعطي هُويتها من لا يحبك يبقى دونما وطنِ

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف بعضاً من تحديات العصر ـ الذي نحيا تحت ظلاله، وانعكاسات هذه التحديات على لغتنا العربية، لنقف أخيراً على سبل مواجهة هذه التحديات.

أولاً- سمات العصر وتحدياته

إن العصر الذي نحيا تحت ظلاله يتسم بسمات متعددة منها أنه عصر ـ العولمة وهيمنة الأقوياء على الضعفاء، وهو عصر العلم والتقانة والمعلوماتية، وعصر التغيرات السريعة، وهو

عصر الوظيفية والنفعية والاجتياح المادي وانحسار القيم المعنوية، والتفكير المنظومي الشامل...الخ. وسنحاول فيما يأتي تبيان هذه السمات وتحدياتها على واقعنا اللغوي.

١- **عصر العلم والتقانة والمعلوماتية:** يجري في عصرنا الحالي غزو الفضاء واقتحام المحيطات وسبر أغوارها، واستخدام الإلكترونيات وسرعة الاتصال والانتقال، وظهور أنماط جديدة من الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية. ومفتاح الحضارة الحديثة في عصر المعلوماتية التعدد والتنوع والمرونة والقدرة على التركيب، والعقل البشري هو العنصر الحاكم في ثورة الإلكترون والمعلوماتية والإنترنت بعد أن كان البخار ورأس المال حاكمين للثورة الصناعية الأولى، وبعد أن كانت الطاقة والإدارة الحديثة حاكمين للثورة الصناعية الثانية.

وعلى الرغم من أن عدد الناطقين بالعربية يقدر بحوالي / ٣٠٠/ مليون نسمة (ما يعادل ٤.٧٪ من سكان العالم) إلا أن نسبة مستخدمي الشابكة «الإنترنت» من العرب لا تزيد على ١.٤٪. ومعظم هؤلاء المستخدمين العرب للشابكة يتعاملون مع مواقع غير عربية وخاصة إنجليزية وفرنسية.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن ضعف النفاذ إلى الشابكة «الإنترنت» في مؤسسات القطاعين العام والخاص ولدى الأفراد قد تسبب في التأخر لدخول عصر المعلومات. يضاف إلى ذلك المشكلات الاجتماعية مثل الفقر والأمية وتدني مستوى التعليم وضمور الثقافية العلمية والتقانية «التكنولوجية»، وعدم وجود حماية فكرية للنشر الإلكتروني والتجارة الإلكترونية.

ولا تستخدم اللغة العربية في البرمجيات المطورة محلياً بسبب ضعف الطلب عليها، وتعاني صناعة البرمجيات العربية من نقص مقوّمات الاستمرار بسبب الاعتماد عموماً على الحلول الجاهزة، ولا تتجاوز نسبة مواقع «الويب» العربية ١٪ من المواقع العالمية، ويعود ذلك إلى عدم

---

(١) الدكتور منصور فرح- الفجوة الرقمية في المجتمع العربي وأثرها على اللغة العربية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر السنوي الخامس «اللغة العربية في عصر المعلوماتية» دمشق ٢٠٠٦ ص٣.

إمكان تطوير البرمجيات بأدوات تدعم اللغة العربية، وإلى نقص الأطر البشرية المؤهلة القادرة على التعامل مع اللغة الإنجليزية والعربية. ويسمح تطوير المحتوى الرقمي العربي بالانتقال من مجتمع عربي مستهلك للتقانة الأجنبية إلى مجتمع فاعل منتج لها، ومحافظ على هويته وانتمائه.[٢]

٢- **عصر العولمة**: إذا كان للعولمة جانب مضيء يتمثل في انفتاح المجتمعات على بعضها، والتبادل الثقافي وتحول العالم إلى قرية كونية واحدة فإن لها جانباً مظلماً يتمثل في هيمنة الأقوياء على الضعفاء هيمنة اقتصادية وثقافية وسياسية، إذ لا مكان في هذا العلم إلا للأقوياء في معرفتهم واقتصادهم حتى بات الأغنياء يزدادون غنى في الوقت الذي أضحى فيه الفقراء يزدادون فقراً، فثقافة الأقوياء هي التي تجتاح العالم وتؤثر في ثقافات الشعوب الأخرى وفي لغاتها، وتؤثر في الذاتية الثقافية لهذه الشعوب، فتعمل على خلخلة الانتماء، وتصاب هذه المجتمعات بالانبهار أمام الثقافات القوية الغازية، وهذا ما يساعد على تقويض أركان التماسك الاجتماعي وتنمية الفردية، وضعف الولاء للمجتمع، وإضعاف الانتماء للتراث الحضاري وتوسع قاعدة الاغتراب. وبغية استمرارية الهيمنة تحاول العولمة ابتعاث كل القيم السلبية التي تفتت بنية المجتمع، وتعمل في الوقت نفسه على وأد القيم الإيجابية التي تعمل على تقدم المجتمع، وارتقائه.[٣]

ومع توسع شبكة الإنترنت ووسائل الاتصال الرقمية المختلفة أخذت العولمة أبعاداً جديدة جعلت الدول الغنية تحكم سيطرتها على الدول النامية من خلال ما بات يعرف بالاقتصاد المبني على المعرفة، إذ أصبحت المعرفة هي الثروة الحقيقية، ولم تعد الثروات المادية الطبيعية فقط هي معيار الغنى والتقدم.

---

(٢) الدكتور محمد نوار العوا- مؤشرات قياس الفجوة الرقمية في المجتمعات العربية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر السنوي الخامس «اللغة العربية في عصر المعلوماتية» دمشق ٢٠٠٦ ص٩.

(٣) الدكتور محمود أحمد السيد- في الأداء اللغوي- وزارة الثقافة السورية دمشق ٢٠٠٥ ص١٥.

وبات الاختلاف في ظلال العولمة كبيراً بين الدول التي تستطيع تقديم التقانات وتلك التي لا تستطيعه، وبين الشركات والمستهلكين القادرين على التمتع بمزايا عصر المعلومات، وهؤلاء الأشخاص الذين ينتظرون استخدامها، وتمثل الفرق أيضاً بين الأشخاص الأغنياء الذين يملكون المعلومات وغيرهم من الفقراء غير الناطقين بالإنجليزية والذين لا يستطيعون النفاذ إلى تلك المعلومات. وتجدر الإشارة إلى أن ٨٠٪ من صفحات الموقع المتوفرة على شبكة «الويب web» مكتوبة باللغة الإنجليزية، وهذا مؤشر من شأنه أن يعيق نفاد غير الناطقين بالإنجليزية إليها.(٤)

٣- **عصر التغيرات السريعة:** من سمات هذا العصر سرعة التغيرات المتلاحقة فيه، وهذه التغيرات شملت مختلف جوانب الحياة، وإذا كانت التغيرات من قبل تتسم بأنها بطيئة فإنها في عصرنا الحالي تتسم بالتبدل المفاجئ، والمعارف تتفجر في هذا العصر بصورة لا مثيل لها، حتى إن المعرفة تتضاعف في حدود عدة أشهر بعد أن كانت تحتاج إلى مئات السنوات من قبل حتى تتضاعف وتتفجر. «واللغة ما دامت مرافقة للأحياء الذين يتكلمونها تخضع لهذه التبدلات والتغيرات وسلامة اللغة في تطورها ومواكبتها لروح العصر، فهي كائن يخضع لناموس الارتقاء والنمو ولابد من توالي الدثور والتوليد فيها أراد أصحابها ذلك أم لم يريدوا، وأن أي لغة في تغير مستمر في أصواتها وتراكيبها وعناصرها وصيغها ومعانيها وإن اختلفت سرعة التغير فيها من فترة زمنية إلى أخرى فهي موجودة على كل حال».(٥)

ولغتنا العربية شأنها شأن سائر اللغات كانت في حركة دائبة، إذ إنها لم تعرف الركود في مسيرتها إلا في عصر الانحدار، فاستطاعت في الجاهلية أن تعبر عن تجارب أصحابها، وعندما ظهر الإسلام بمفاهيمه الجديدة استطاعت أن تتمثل هذه المفاهيم، وأن تعبر عنها أيما تعبير. فهي

---

(٤) المرجع الثاني ص٢.

(٥) الدكتور محمود أحمد السيد- في طرائق تدريس اللغة العربية- جامعة دمشق ٢٠٠٤ ص٢٣٧.

لغة أصيلة مرنة مطواعة، عبرت عن حاجات العصر الجديد ة واتجاهاته، فازدادت مفرداتها غنى بالوضع تارة وبالاشتقاق تارة أخرى، وتنوعت أساليبها وفق مقتضيات العصر، فظهرت مصطلحات جديدة اقتضتها طبيعة العصر في ميادين المعرفة كلها من فلسفة وطب وعلوم ورياضيات...الخ.

٤- **عصر الاجتياح المادي**: ولقد سادت في ظلال العولمة لغة المصالح حتى بات ينطبق على عصرنا قول شاعرنا العربي:

حيَّاك من لم تكن ترجو تحيته لولا المصالح ما حيّاك إنسانُ

وانحسرت القيم المعنوية لصالح القيم المادية، وتجمدت العواطف، وتحجرت المشاعر. وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الإنسان في اكتشاف كبد السماء وسبر أغوار المحيطات، وإيقاد ثورات التقانة البيولوجية والتقانية والمعلوماتية والسيطرة على البيئة إلا أنه لم يستطع أن يعيش على الأرض إنساناً بكل ما تحمل كلمة إنسان من معنى وقيم، فها هي ذي حقوق الإنسان تنتهك، وها هي ذي شريعة الغاب تسيطر على الصعيد العالمي، وآلاف الأطفال يموتون يومياً بسبب الجوع والمرض إضافة إلى جحافل الأميين من الصغار والكبار، وإلى جحافل العاطلين عن العمل، وإلى انتشار أمراض الإيدز والمخدرات والعنف واستغلال الأطفال وتشيئة الإنسان وتسليعه وسيرورة قيم الاستهلاك.

إن عالماً تلك هي حاله يحتاج إلى تعزيز القيم الإنسانية فيه والعمل على سيرورتها وانتشارها ودعمها على مختلف الصعد. وتراثنا العربي غني وزاخر بهذه القيم التي تعبر عنها لغتنا العربية، فخير الناس أنفعهم للناس، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده كما جاء في الحديث الشريف.

٥- **عصر النفعية والوظيفية**: وتتمثل هذه السمة في أن كل ما يتعلمه المرء ينبغي له أن يؤدي وظيفة لصاحبه في الحياة التي يتفاعل معها، ويلبي له حاجاته ومتطلباته، ومن هنا كان ثمة ربط بين الجانبين النظري والعملي وكان ثمة اهتمام بالجوانب التطبيقية والسلوكية في الحياة. وهذا المنحى شق طريقه على الصعيد العالمي، فتخلصت المناهج

التربوية في الأعم الأغلب من الحشو والتكرار ومن الأمور التي لا تفيد في واقع الحياة، وأمتنا العربية كانت سباقة في تطبيق المنهج الوظيفي والنفعية الاجتماعية، ففي الدعاء «اللهم علمني ما ينفعني، وانفعني بما علمتني»، والعلم كما يقول ابن عبد ربه: علم حمل وعلم استعمل. ولكي يكون العلم جديراً باسمه كان لابد أن ينتقل من مرحلة التحصيل إلى مرحلة التطبيق العملي ذلك لأن الفعل وديناميته لا العلم المجرد في ثباته وسكونه هو حجر الزاوية في البناء الإنساني من وجهة النظر العربية. وقد انعكس هذا المنحى في اللغة العربية وطرائق بنائها، فهي تبدأ الجملة بالفعل وتعقب عليه بالفاعل. على خلاف اللغات الأوروبية التي تبدأ جملتها بالفاعل ثم تلحقه بالفعل.[٦]

واهتم «ابن خلدون» بالناحية التطبيقية في اكتساب العلم، إذ ليس المهم معرفة القواعد والقوانين والمصطلحات في حد ذاتها، وإنما المهم القدرة على استخدامها والاستفادة منها عملياً، فقد فرَّق بين صناعة اللغة التي تكون قواعدها وقوانينها واصطلاحاتها وبين ملكة اللغة إذ يقول: «والشخص الذي يستوعب هذه القواعد والمصطلحات دون أن يطبقها عملياً يكون مثل الشخص الذي يتقن صناعة من الصناعات علماً، ولا يكون له دراية بهذه الصناعات عملياً».[٧]

٦- **عصر التفكير المنظومي**: ويقوم التفكير المنظومي على أساس أن النظام أو المنظومة «System» يتكون من مجموعة من الأجزاء أو المكونات التي ترتبط فيما بينها ارتباطاً عضوياً وثيقاً، بحيث يؤثر كل منها في غيره ويتأثر به. وفي دراسة أي نظام لابد من التركيز على:

أ- مكونات النظام.

ب-العلاقة الوطيدة التي تربط بين هذه المكونات.

---

(٦) الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة- دمشق ١٩٩٢ ص١٥.

(٧) ابن خلدون- المقدمة- ص٠.

ج- العوامل الخارجية التي تؤثر في هذا النظام، وترتبط بغيره من النظم الأخرى في إطار نظام أكثر شمولاً واتساعاً.[٨]

وفي ضوء هذا المفهوم ينظر إلى اللغة على أنها «نظام» لا تشتمل على اللغة المنطوق بها وحدها، ولا على اللغة المكتوبة وحدها، وإنما تشمل بالإضافة إليهما الإشارات والإيماءات وأسارير الوجه التي تصاحب عادة سلوك الكلام وجميع صور التعبير.

وينظر إلى القواعد النحوية على أنها نظام فلا تقتصر على ضبط أواخر الكلمات والبنية الداخلية للكلمة وما طرأ عليها من تغيرات في أحوالها المختلفة، وإنما تجاوزت هذا المفهوم إلى التراكيب وبني الجمل الفرعية والأساسية والمعاني والأصوات، ذلك لأن تغيير الحركات الإعرابية والصيغ والأبنية يؤدي إلى تغيير في المعنى. والمعنى هو تتويج لهذه المكونات كافة.

ثانياً- اللغة العربية في ضوء تحديات العصر

إن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها الوطن العربي من جهة وسرعة التغيرات في عصر المعلوماتية والعولمة من جهة ثانية، تظهران اللغة العربية وكأنها عاجزة عن مواكبة التطور، في الوقت الذي نرى فيه أن المشكلة لا ترجع إلى اللغة العربية وإنما إلى الجمود الفكري لبعض المنظرين الذين يتمسكون بالشكل على حساب المضمون من جهة وإلى ضعف الانتماء القومي من جهة ثانية. واللغة هي رمز للكيان القومي وعنوان للشخصية ومعبرة عن الهوية، ولو كان هذا الانتماء متوافراً بجدارة لدفع أبناء الأمة على توليد المعرفة بلغتهم الأم وتوسيع المحتوى الرقمي كما يحدث في اللغات الأخرى.

إن الخطر المؤثر في اللغة العربية في ظلال العولمة يأتي من تهميشها تدريجياً مع الزمن لصالح الإنجليزية على أن الأخيرة هي لغة عمل وتواصل على جميع الصعد بدءاً بالنشر العلمي وتبادل الخبرات التقانية «التكنولوجية» مروراً بالتعليم العالي والتجارة والصناعة وغيرها، وصولاً إلى

---

(٨) الدكتور محمود أحمد السيد- اللغة مركز الدراسات الإنسانية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر الخامس «اللغة العربية في عصر المعلوماتية» دمشق ٢٠٠٦ ص٢٠.

التعليم الأساسي، وهذا يعني ضمور اللغة العربية واستخدامها في مجالات تقليدية محددة، وقد يزداد دور اللهجات العامية في تأثيرها على الفصيحة فتغدو لغات مستقلة عن بعضها، وقد تنضم العربية إلى اللغات الأخرى المهمشة على الرغم من أنها لغة العقيدة والحضارة والعراقة والأصالة إذا لم نكن مجاهدين حقاً.

ومن الملاحظ أن الأجيال العربية الصاعدة ترى في إتقان العربية صعوبة، كما ترى أن الجهد التطويري في إدخال اللغة العربية في نظم المعلومات غير كاف ويقتصر على الاستيعاب السطحي، إذ إن ثمة شحاً في محتواها الرقمي، وعدم توفر الأدوات المعلوماتية الملائمة للبحث والتنقيب فيها، وغير ذلك من العوائق التي تزداد يوماً بعد يوم. ونحن نرى اليوم بلداناً عربية تتوجه نحو اللغات الأجنبية في التعليم العالي وخاصة في الفروع العلمية والتقانية «التكنولوجية»، بعد أن كان من توصيات وزراء الصحة وزراء التعليم العالي في الثمانينيات أن يكون عام ٢٠٠٠ هو عام الانتهاء من التعريب في الجامعات العربية.

وما دام أرباب العولمة يرومون وأد كل القيم الإيجابية التي تعمل على تقدم مجتمعنا العربي وإيقاظ كل القيم السلبية التي تفتت بنيته، وما دامت اللغة العربية توحد بين أبناء الأمة العربية، وفي وحدة العرب قوة لهم، كانت هذه اللغة هدف سهامهم فعملوا على تفتيت هذا الرابط بطرق إحياء العامية من جهة، على أن العامية عامل تفريق، في حين أن الفصيحة عامل توحيد، فإذا العامية تسري على الألسنة والأقلام في المسلسلات التلفزيونية والقنوات الفضائية.

ومن جهة أخرى عمدوا إلى وصم لغتنا الفصيحة بالتخلف وعدم مواكبة روح العصر وبأنها لغة البداوة وليست لغة العلم والتقانة، وأنه إذا أراد أبناء العروبة أن يواكبوا روح العصر فما عليهم إلا أن يستخدموا اللغة الإنجليزية وهذا ما جنحت إليه أغلب جامعات وطننا العربي وما نراه ماثلاً على ألسنة المندوبين العرب في المحافل الدولية على الغم من أن العربية معتمدة لغة رسمية في هذه المحافل، وهذا ما نراه ظاهراً أيضاً على واجهات المحال التجارية وفي اللافتات والإعلانات. كما نرى الأقوام الأخرى وعلى الأرض العربية تتحدث بلغتها وبالإنجليزية ولا يعملون على تعلم لغتنا ما داموا يقضون حاجاتهم ومتطلباتهم في منأى عنها، حتى بات العربي

غريب اللسان على أرضه في بعض أرجاء وطننا العربي وغدا التدريس بالإنجليزية في بعض جامعات وطننا العربي في الوقت الذي كان فيه الأمريكان يدرسون باللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت إبان افتتاحها!.

وتجدر الإشارة إلى أن لغتنا العربية تعاني النقص في الدراسات العلمية التي تتناول تيسير تعلمها وتعليمها، كما تعاني النقص في حصر الرصيد اللغوي بالأساليب العلمية، والنقص في الكشف عن الفعالية النسبية لطرائق تعليمها وأساليب تقويم مهاراتها، والنقص في استخدام التقنيات التربوية في عمليتي تعليمها وتعلمها، والنقص في البرامج الخاصة بالأطفال والمنجزة بالعربية الميسرة والملائمة.

ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن ثمة نفراً من اللغويين العرب يظنون أنهم في تشددهم اللغوي فلا يقبلون إلا ما ورد في المعاجم القديمة إنما يحافظون على سلامة اللغة وتطورها، ولكن فاتهم أن يقروا بأن اللغة العربية أوسع من معاجمها، وأن سلامة اللغة لا تكون في الجمود، وإنما في الاحتفاظ بأصول اللغة وقواعدها ونظامها ثم في تعبيرها عن حاجات العصر ومتطلباته، ورحم الله الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة إذ يقول: «والذين يريدون المحافظة على اللغة فيرفضون كل جديد مثلهم كمثل الذي يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها في خزائن حديدية، فتؤدي تلك المحافظة إلى ذبولها. والمحافظة الصحيحة على الكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التي تعيش فيها».[٩]

ثالثاً- من سبل مواجهة التحديات

من السبل التي علينا أن نسلكها في مجالات لغتنا العربية بغية مواجهة التحديات:

١- **تعزيز الانتماء**: إن الحفاظ على الهوية والذاتية الثقافية للأمة واجب مقدس في عصر العولمة. ولغتنا هي رمز كياننا وعنوان شخصيتنا العربية وهويتنا الثقافية، إلا أن ذلك كله لا ينفي أهمية الانفتاح على الثقافات الأخرى في جو من العقلنة، وذلك لأن الحفاظ على الهوية لا يعني الجمود

(٩) الدكتور محمد كامل حسين- اللغة العربية المعاصرة- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧٦ ص٤.

بل هو عملية تتيح للمجتمع أن يتطور ويتغير دون أن يفقد هويته الأصلية، وأن يقبل التغيير دون أن يغترب فيه: إنه التفاعل بين الأصالة والمعاصرة، وبين الإيجابي البنّاء في تراثنا والبناء الإيجابي من الثقافات الأخرى بما يتفق ومناخنا وأرضنا في جو من الندية، وفي منأى عن الدونية والانبهار والاستلاب، مقتدين بأجدادنا إبان الألق الحضاري لأمتنا. إن غرس الاعتزاز بلغتنا العربية في نفوس الجيل تخليصاً له من عقدة التصاغر تجاه اللغات الأجنبية وثقافتها وقيمها لابد من أخذه بالحسبان في نهضتنا، وهذا لا يعني أن نقتصر على اكتساب مهارات لغتنا فقط، وإنما لابد من اكتساب اللغات الأجنبية وإتقانها إلى جانب اللغة الأم وهذا ما ورد في تراثنا من حض على تعلم اللغات الأجنبية:

بقدر لغات المرء يكثر نفعُه ... وتلك له عند الشدائد أعوانُ

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً ... فكل لسان بالحقيقة إنسانُ

٢- تنشيط اللغة العربية في المعلوماتية: لما كان المحتوى العربي على الشابكة «الإنترنت» ضئيلاً، إذ لا تتجاوز مواقع «الويب» ١٪ من المواقع العالمية كما سبقت الإشارة إليه من قبل، وكان ثمة ضعف في الإلمام باللغة الإنجليزية على صعيد الوطن العربي، إذ إن ٨٠٪ من صفحات الموقع المتوافرة على شبكة الويب مكتوبة باللغة الإنجليزية، وهذا ما يعيق نفاذ غير الناطقين بالإنجليزية إليها، كان لابد من العمل على زيادة المحتوى العربي الرقمي على الشابكة «الإنترنت» مثل المواقع التعليمية والإعلامية والثقافية والمكتبات الإلكترونية بالعربية...الخ.

ويتطلب ذلك تطوير أدوات البحث عن المعلومات باللغة العربية «محركات البحث» ووضع ذخيرة المعرفة العربية إلكترونياً على الشابكة ودعم المصطلح العربي، ودعم مشروعات التحليل الصرفي الإعرابي والدلالي، وتعريب البرمجيات العالمية وتأكيد استخدام اللغة العربية في البرمجيات الحكومية والإدارية وإيجاد الأدوات المناسبة لتطوير المحتوى، وتشجيع البحوث المتخصصة باللغة العربية «تركيب الكلام تعرف الكتابة» أو الترجمة الآلية ومعالجة اللغة العربية الطبيعية وتطوير الأسماء العربية للنطاقات، ذلك لأن تطوير محركات البحث باللغة العربية يسمح بتسهيل الوصول إلى مصادر المعلومات، كما يتيح بناء مواقع «ويب» تفاعلية باللغة العربية إلى زيادة

الاهتمام بالشابكة «الإنترنت» ورفع نسبة الانتشار وزيادة عدد المستخدمين، ويمكن بالاعتماد على العربية تطوير برمجيات الخدمة الحكومية الإلكترونية وتسهيل التواصل بين الأفراد ولا يمكن إغفال دور اللغة العربية في منصات التعليم الإلكتروني التي تسمح للطلاب التواصل بلغتهم الأم.

ويتطلب ذلك دعم مشروعات توحيد المصطلحات العربية المعلوماتية لما لها من أثر في تسهيل تواصل الأفراد والباحثين العاملين في هذا الميدان، كما يتطلب اعتماد مؤشرات خاصة باستخدام اللغة العربية في تقانة المعلومات والاتصالات وإنشاء مرصد لمتابعتها مثل:

أ- عدد المصطلحات العربية الجديدة المعتمدة

ب-عدد الكتب العربية التقنية «ترجمة وتأليفاً»

ج- عدد المواقع باللغة العربية

د- عدد البحوث الخاصة باللغة العربية[١٠]

كما يتطلب تأهيل الأطر البشرية بالمعلوماتية إضافة إلى التأهيل اللغوي في الوقت نفسه، ذلك لأن ردم الفجوة الرقمية يتطلب:

أ- تطوير اللغة العربية.

ب- تطوير التعليم والتعلم باللغة العربية.

ج- بناء صناعة المحتوى الرقمي العربي.

د- تمكين استخدام الشابكة «الإنترنت» بالعربية.

هـ- الاعتماد على المشاركة المفتوحة لتطوير العربية ونشرها.[١١]

٣- دعم مسيرة التعريب: غني عن البيان أنه لا يتم فكر من غير لغة ذاتية له ولا علم دون لغة تعبير ذاتية له، ويبقى الفكر العربي ناقصاً وغريباً إذا لم يقرأ ويكتب ويفكر فيه بالعربية. ومن هنا كانت

---

(١٠) المرجع الأول ص١٣.

(١١) المرجع السابق ص٨.

قضية التعريب تنبع من مستويات متعددة.[١٢]

- فالتعريب من الجانب القومي ضرورة قومية لأن اللغة مقوم أساسي من مقومات الوحدة.

- والتعريب من الجانب التربوي ضرورة حياتية وعلمية لأن المرء يفهم بلغته الأم أكثر مما يفهم بأي لغة أخرى.

- والتعريب من زاوية الأمن الثقافي ضرورة لإيقاظ الوعي بالغزو الفكري والتبعية الأجنبية المتزايدة.

- والتعريب من ناحية الإبداع والابتكار ضرورة للانتقال من استهلاك الأشياء إلى صنعها ومن ثم منحها الاسم العربي.

- واللغة العربية أولاً وأخيراً لغة العقيدة، لغة القرآن الكريم، ولا يمكن فهم الدين فهماً صحيحاً لا لبس فيه ولا غموض من غير إتقان اللغة العربية، اللسان العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم آية لنبوته وتأييداً لدعوته ودستوراً لأمته.

ولغتنا العربية بما تتسم به من سمات الاشتقاق والمجاز والتعريب مهيأة لمواكبة روح العصر- إذ إن ما تمتاز به من غزارة الاشتقاق وفيض التصريف في أفعالها وأسمائها جعلها تستوعب مصطلحات جديدة من غير أن تنزل عن أصولها وقواعدها ونظامها ثم في تعبيرها عن حاجات العصر ومتطلباته.

وتنشيط الترجمة من العربية وغليها من اللغات الأخرى من الأهمية بمكان ذلك لان ما ترجم إلى اللغة العربية نسبته ضئيلة جداً إذ إن ما ترجم من كتب منذ عهد المأمون حتى يومنا هذا لا يزيد على ١٠٠.٠٠٠ كتاب، ويقارب هذا الرقم ما تترجمه إسبانيا في عام واحد.[١٣]

وعلى اتحاد مجامع اللغة العربية والجامعات العربية ومؤسسات الترجمة ومراكزها في الوطن العربي مسؤوليات جسام تجاه لغتهم الأم ونقل أمهات الكتب الأجنبية العالمية والموسوعات

---

(١٢) الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا التعريب- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢ ص٥.

(١٣) المرجع الأول ص٧.

ودوائر المعارف إلى العربية، إذ إن من مستلزمات دعم مسيرة التعريب الانفتاح على اللغات الأخرى وامتلاك ناصيتها، لأن إتقان اللغات الأجنبية إلى جانب إتقان اللغة العربية يسهم أيما إسهام في دفع مسيرة التعريب خطوات إلى الأمام.

وتجدر الإشارة إلى أن التلكؤ في تطبيق التعريب من جهة والتسويف في هذا الغنفاذ من جهة ثانية أمر يحتاج إلى حسم وإصدار القرار السياسي اللازم، ولا مسوّغ إطلاقاً لهذا التريث وذلك التسويف!

وها هي ذي سورية العربية قد اتخذت القرار منذ عشرينيات القرن الماضي، واعتمدت اللغة العربية الفصيحة لغة التعليم ولغة الحياة حتى إن السيّد «بونور» مدير المعارف العام في المفوضية العليا في العشرينيات من القرن الماضي إبان الانتداب الفرنسي على سورية يخاطب أساتذة الجامعة السورية آنذاك قائلاً: «لقد أردتم أن تكون أداة هذا التجدد وهذه الثقافة اللغة العربية، ولستم مخطئين في اختياركم لها مونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعاً بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبين فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات الأخرى غنية باشتقاقاتها وكافية بكثرة تراكيبها للتعبير عن الأفكار الجديدة والارتباطات الحديثة التي تربط تلك الأفكار، فإن فلاسفة العرب حينما نقلوا في القرن التاسع إلى لغتهم رسائل أرسطو طاليس تمكنوا من نقل العلوم كما في عهد ابن سينا والغزالي وابن رشد، فما من ينكر والحالة هذه أن اللغة العربية صالحة لمماشاة اللغات الأخرى وللتعبير عن الأفكار العلمية الحديثة. اعلموا أن اندفاعكم إلى إيجاد مؤسسة علمية كبيرة عربية اللسان هو على ما رأى أكبر دليل على حذاقتكم، فظلوا أبداً محافظين على هذه الأداة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من الأعمال الباهرة وبعدد من الأشكال الجميلة التي تجلى بها الفكر البشري. ويتابع قائلاً: «إنني أهنئ العرب، وأتمنى ألا يضيعوا هذا الاحترام المقدس للغتهم لأن من يدافع عن لغته يدافع عن أصله وعن حقه المقبل وعن كيانه وعن لحمه ودمه، وإنكم تفهمتم هذا الأمر جيداً.

وإذا كانت سورية منذ ما يقرب من قرن قد اعتمدت لغتها القومية «العربية الفصيحة» في التعليم، فها هي ذي مخرجات التعليم في الجامعات السورية وفي الكليات العلمية من طب وهندسة

وعلوم.....الخ تثبت جدارتها وتفوقها على مختلف الصعد العالمية بسبب دراستها باللغة الأم في الوقت الذي ما نزال نسمع فيه صيحات تتعالى من هنا وهناك في بعض جامعات وطننا العربي تتساءل: هل اللغة العربية صالحة لأن تدرس بها العلوم الطبية والهندسية والفيزيائية....الخ. على الرغم من أن الحقائق جلية وواضحة أمامها للعيان.

٤-الحفاظ على صفاء اللغة والعمل على سيرورتها وانتشارها: إذا كان القائد الفيتنامي «هوشة منية» يخاطب أبناء أمته قائلاً: «عليكم الحفاظ على صفاء لغتكم حفاظكم على صفاء عيونكم، حذار من أن تضعوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تضعوا فيه كلمة فيتنامية» فإن أبناء الأمة العربية أجدر بني البشر في الحفاظ على صفاء لغتهم الأم، لأنها لغة القرآن الكريم والرابطة التي توحد بينهم فكراً وقيماً ومشاعر.

وسيرورة اللغة العربية في جميع مناحي الحياة واجب ديني وقومي، والحؤول دون استخدام العاميات في البرامج الثقافية كافة مطلب وطني وقومي، وتيسير استخدام اللغة العربية في عمليات التواصل اللغوي أمر على درجة كبيرة من الأهمية.

وعلى الدول العربية واجب قومي نحو أبنائها في المهاجر وأجيالها الناشئة حفاظاً على انتمائهم العربي وقيمهم العربية الأصلية وشخصيتهم الحضارية من أن تذوب في المحيط الغريب. وعلى النظم التربوية العربية أن تعمل جاهدة على غرس الشغف بالمطالعة في نفوس الناشئة منذ نعومة أظفارهم حتى يغدو الكتاب الصديق الصدوق وخير جليس.

ولابد من تشجيع الكتابة للأطفال وتخصيص جوائز للمبدعين، والعمل على إيجاد برامج بديلة عن البرامج الأجنبية تتسم بالطابع العربي وتزخر بالقيم العربية وبلغة شائقة وميسرة. ولا يغيبنَّ عن البال أن تعليم لغتنا يحتاج إلى وقفة مستأنية إذ لابد من التركيز على الجوانب الوظيفية في مناهج تعليم اللغة والبعد عن المماحكات والتأويلات والشذوذات والاستثناءات وتخليص المناهج من الحشو والتكرار واستخدام التقنيات المعاصرة في العملية التعليمية التعلمية.

٥- نشر روائع الثقافة العربية وقيمها الإنسانية: لما كان العصر الذي نحيا تحت ظلاله هو عصر الاجتياح المادي وانحسار القيم المعنوية كان على المعنيين في أمتنا وكلنا معنيون، أن يعرفوا العالم

بتراثنا الغني الذي يمثل ماضياً حياً لأنه إنساني في أغلب مواقفه وقيمه، وهو موجه إلى الإنسانية جمعاء، وهو تراث حي لأنه ظل سارياً موصولاً من جيل إلى جيل ومتغلغلاً في النفوس، وقد أعان الأمة على الصمود، وهو قابل للتطور وصالح للبقاء يقوم على أشرف ما يتميز به الإنسان عقله وضميره، ويدعو إلى الإخاء والعدالة والمساواة في الإنسانية والمحبة والسلام.

ولما كان ثمة تعتيم على قيم حضارتنا العربية الإسلامية فإننا مطالبون في عصر التقانة والمعلوماتية بنشر ثقافتنا بمختلف الوسائل والسبل وتعريف الآخرين بها وإزالة الضباب والتعتيم عن قيمنا الأصيلة.

٦- **سيرورة التفكير العلمي والعناية بالبحث العلمي**: إن التثقيف العلمي عملية هامة في بناء الوطن العربي بناءً سليماً كي يكون إيجابياً وفعالاً في تنمية مجتمعه وتقدمه وارتقائه. والركيزة الأساسية للتثقيف العلمي هي في تربية الجيل الصاعد وتعويده على التفكير العلمي وتزويده بمهارات التفكير الناقد الذي بوساطته يستطيع أن يميز بين الزيف والحقيقة والغث والسمين، والنافع والضار، وبالمنهج العقلاني الذي يسمح له بمعالجة شؤون حياته معالجة سليمة.

ولابد من تعميق الفهم الشعبي للقضايا العلمية والعلمية والتقانية وتوضيح دورهما الإيجابي في التنمية، ونشر المنهج العلمي في تناول شؤونها من خلال برامج محو الأمية في وسائل الاتصال الجماهيري والإعلام.

ويجب تحرير الفكر العربي المعاصر من إرهاب الفكر الخرافي والتزمت والتعصب وضيق الأفق والأثرة وتأصيل احترام العقل والنقد الذاتي واحترام الرأي.

والعناية بالبحث العلمي هي السبيل لمعالجة قضايانا اللغوية وغيرها معالجة موضوعية، فكفانا اعتماداً على الاجتهادات الذاتية والخبرات الشخصية في تناول قضايانا اللغوية، إذ إن السبيل إلى معالجة المشكلات اللغوية المنهج التجريبي والبحوث الميدانية، واعتماد التفكير المنظومي في معالجة شؤون اللغة يسهم أيما إسهام في رصد العوامل المؤثرة ووضع الحلول والمقترحات بغية تجاوز المشكلات وسد الثغرات.

سنظل متفائلين بمستقبل هذه الأمة ولغتها الشريفة، إلا أن هذا التفاؤل يحتاج إلى عمل

حثيث وجهود متواصلة لتجاوز العقبات، وتذليل المعوقات، ﴿وقلِ اعملوا فسيرى اللهُ عملَكُم ورسولُهُ والمؤمنونَ﴾ صدق الله العظيم.

مراجع الفصل

١- الدكتور محمد كامل حسين- اللغة العربية المعاصرة- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٧٦.

٢- الدكتور محمد نوار العوا- مؤشرات قياس الفجوة الرقمية في المجتمعات العربية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر السنوي الخامس (اللغة العربية في عصر المعلوماتية)- دمشق ٢٠٠٦.

٣- الدكتور محمود أحمد السيّد- اللغة مركز الدراسات الإنسانية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر السنوي الخامس (اللغة العربية في عصر المعلوماتية)- دمشق ٢٠٠٦.

٤- الدكتور محمود أحمد السيّد- في الأداء اللغوي- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٥.

٥- الدكتور محمود أحمد السيّد- في طرائق تدريس اللغة العربية- منشورات جامعة دمشق- ٢٠٠٤.

٦- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق ١٩٩٢.

٧- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا التعريب- المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر- دمشق ٢٠١٠.

٨- الدكتور منصور فرح- الفجوة الرقمية في المجتمع العربي وأثرها على اللغة العربية- مجمع اللغة العربية بدمشق- المؤتمر السنوي الخامس (اللغة العربية في عصر المعلوماتية)- دمشق ٢٠٠٦.

الفصل الرابع

مستقبل اللغة العربية ومتطلبات العصر القادم *

(*) بحث ألقي في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠١٢.

الفصل الرابع

مستقبل اللغة العربية ومتطلبات العصر القادم

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف مستقبل اللغة العربية في العصر القادم، وأن نقف على بعض من خصائص هذا العصر وتحدياته، ومن ثمَّ نبين ما الذي تفرضه علينا طبيعة العصر- تجاه لغتنا لمواجهة التحديات وتجاوز السلبيات؟

أولاً- ما مستقبل اللغة العربية؟

طرح هذا السؤال في العقد الثالث من القرن الماضي، وأجابت عنه كوكبة من رجالات الفكر، وما يزال هذا السؤال مطروحاً في أيامنا في أجواء تشير إلى أن ثمة لغات تنقرض سنوياً على الصعيد العالمي، وأن المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» تحذر المجتمع الدولي من خطورة انقراض عدد من اللغات الأم، الأمر الذي دعاها إلى تخصيص اليوم العالمي للاحتفال باللغة الأم في الحادي والعشرين من شهر شباط «فبراير» من كل عام، كي تقوم المجتمعات بالحفاظ على لغاتها عنواناً لشخصياتها، ورمزاً لذاتياتها الثقافية، في ضوء ما اعتمدته المنظمة الدولية من الأخذ بالتعدد الثقافي والتنوع اللغوي.

ويرى نفر من المفكرين أن اللغة العربية ستبقى في المستقبل محافظة على كيانها، ولن تعرف الأفول والانقراض مادام القرآن الكريم حارساً لها، ومحافظاً عليها، فها هو ذا جول فرن، الكاتب القاص الفرنسي، ذو الخيال العلمي، يقول في إحدى قصصه: «إن قوماً اخترقوا باطن الكرة الأرضية، وخطر لهم أن يتركوا هنالك أثراً يدل على مبلغ وصولهم، فتركوا هنالك حجراً نقشت عليه عبارة باللغة العربية، ولما سألوا جول فرن: لماذا اخترت اللغة العربية من بين اللغات العالمية كافة؟ أجاب: لأنها لغة المستقبل، ولاشك أنه سيموت غيرها في حين تبقى هي حية حتى يُرفع القرآن نفسه»[1].

---

(١) محمد الخضر حسين- دراسات في العربية وتاريخها- الناشر المكتب الإسلامي- مكتبة دار الفتح- المطبعة التعاونية في دمشق- دمشق ١٩٦٠ ص١٤.

ولقد أشار الأديب مصطفى صادق الرافعي إلى هذا الأمر نفسه عندما يقول: «إن اللغة العربية تمتاز على اللغات كافة بارتباطها بالأصلين العظيمين الخالدين القرآن والحديث، وليس يخفى أن الكيان الإنساني قائم على القوى الأدبية، وأصل هذه القوى في العالم الإسلامي هو القرآن، وهو كذلك أصبح من وجوه كثيرة كأنه أصل اللغة»[٢].

ونحا جبر ضومط عضو المجمع العلمي العربي بدمشق والأستاذ في الجامعة الأمريكية في بيروت المنحى نفسه في الإشارة إلى الترابط بين اللغة العربية والقرآن والحديث النبوي، إذ يقول: «في كل اللغات الراقية لهجات عامية مختلفة، ولكن اللغة الفصحى لغة المعلمين والمتعلمين، وهي لغة المدارس والجرائد والكتب، وإذا بقي الإسلام وسيبقى، فلغة القرآن الكريم والحديث النبوي وسائر الآداب العربية منذ عهد الرسول إلى اليوم أقوى من سائر اللغات الأوربية على هضم اللهجات العامية المختلفة. ولذلك فستبقى هذه اللغة الشريفة كما كانت لغة العلم والمتعلمين والأدباء والمتأدبين، ولغة الصحافة والمؤلفين إلى ما شاء الله»[٣].

وكان الشاعر خليل مطران أديب القطرين السوري والمصري قد أكد هذا الترابط في استمرارية اللغة العربية الفصحى لعلاقتها بالقرآن الكريم عندما يقول: «لا تنسَ أن الاستمرار في تعلم الفصحى وتعليمها والاهتمام بتسهيلها وتقريبها وتعميمها هو أنها لغة القرآن الشريف، وكفى بهذا بياناً لقوم مبصرين!»[٤].

ولم تقتصر الإشادة بمستقبل العربية على أبناء العربية وحدهم، وإنما أقرّ بذلك المستقبل لها عدد من المستشرقين الأجانب، فها هو ذا المستشرق الأمريكي «رتشرد كوتهيل» الأستاذ في جامعة كولمبيا يقول: «كان للعربية ماض مجيد، وفي مذهبي أنه سيكون لها مستقبل باهر». ويعلل

---

(٢) فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية- منشورات وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٣ ص٢٩.

(٣) المرجع السابق ص٢٤.

(٤) المرجع السابق ص١٩.

ذلك قائلاً: «إن شعباً له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية، ولغة لينة مرنة ذات مادة، تكاد لا تفنى، لا يخون ماضيه، ولا ينبذ إرثاً، اتصل إليه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده»[٥].

وذهب المستشرق الأمريكي «وليم ورل» مدير مدرسة المباحث الشرقية الأمريكية في القدس سابقاً المذهب نفسه في الإجابة عن سؤال مستقبل اللغة العربية، إذ يقول: «أما سؤالكم عن مستقبل اللغة العربية فالجواب عليه أن هذه اللغة لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل، كما حافظت عليه في الماضي»[٦].

ويعلّل رأيه بأن للغة العربية ليناً ومرونة يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات هذا العصر، وليس من شك في أنه متى سنحت لها الظروف فإنها تستطيع أن تبلغ درجة من الدقة والرقي، تمكنها من التعبير عن أسمى الأغراض العلمية.

وإذا كانت الآراء السابقة تتجه إلى تأكيد استمرارية اللغة العربية في المستقبل فإن ثمة سنة من سنن الكون في سقوط اللغة، كان قد أشار إليها «ابن حزم» في كتاب «الإحكام» عندما يقول: «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل، بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو تنقلهم عن ديارهم، واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوةُ دولتها، ونشاطُ أهلها وفراغُهم. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوّهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخاطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيود علومهم؛ هذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل والضرورة»[٧].

والواقع أن ما هو موجود بالمشاهدة يدل على أن ثمة استبعاداً للعربية وتهميشاً لها في العملية

---

(٥) المرجع السابق ص٩.

(٦) المرجع السابق ص١٥.

(٧) محمد الخضر حسين- دراسات في العربية وتاريخها- مرجع سابق ص٢١.

التعليمية التعلمية في معظم جامعات الوطن العربي، إذ إن اللغة الفرنسية هي المهيمنة في جامعات المغرب العربي، واللغة الإنجليزية هي المهيمنة في جامعات الخليج العربي.

كما أن إتقان الأجنبية شرط للتعيين في القطاع الخاص، وفي المؤسسات الخدمية والسياحية في أغلب بقاع الوطن العربي، ولم تشتمل شروط التعيين على إتقان اللغة العربية.

وما هو موجود بالمشاهدة أيضاً أن ثمة غياباً للعربية على ألسنة معظم ممثلي الدول العربية في المحافل الدولية، على الرغم من أن العربية معتمدة لغة رسمية في هذه المحافل.

ولِمَ نذهب بعيداً فها هي ذي اللافتات والإعلانات والتسميات على واجهات المحال التجارية تنطق بالأجنبية، وها هم أولاء العاملون على الأرض العربية، يتحدثون بلغاتهم وبالأجنبية، ولا يعملون على تعلم لغتنا، ماداموا يقضون حاجاتهم ومتطلباتهم في منأى عنها!.

وإذا ظلت الأمور تسير على هذا المنوال فإن مستقبل العربية في خطر، ولا يكفي أن تكون لغة عبادة، بل نريدها لغة الحياة في جميع جوانبها وميادينها مادامت اللغة الأم والوطن الروحي للأمة ومستودع تراثها والموحِّدة والموحَّدة، وما دامت سماتها وخصائصها تؤهلها للاستمرارية، إلا أن من سمات العصر القادم التغير المستمر، وتلك هي سمة من سماته البارزة، فهل تستجيب العربية لخصائص العصر القادم وتواجه تحدياته؟ وهنا لابد أن نتعرف بعضاً من تلك الخصائص والسمات والتحديات، لنتبين من ثَمَّ كيف يمكن للعربية أن تواجه تلك التحديات حفاظاً على بقائها واستمراريتها.

ثانياً- من خصائص العصر القادم

إن العصر القادم يتسم بسمات متعددة منها أنه عصر التفجر المعرفي والتطور السريع، وإذا كانت المعارف من قبلُ تحتاج إلى مئات السنين حتى تتضاعف فإنها تتضاعف في أيامنا خلال شهور، وستستمر عملية التفجر المعرفي في العصر القادم، وستزداد وتيرة تفجرها ازدياداً عالياً، فلقد أشارت إحصاءات المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» إلى أن المعارف تضاعفت بين الميلاد و١٠٠٠، ثم تضاعفت بين ١٠٠٠ و١٥٠٠، وتضاعفت بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ وتضاعفت بين ١٨٠٠ و١٩٠٠، كما تضاعفت بين ١٩٠٠ و١٩٤٥ ثم بين ١٩٤٥ و١٩٦٠

وبعدها بين ١٩٦٠ و١٩٦٨ إلى أن وصلت حالياً إلى عدة شهور.

وهكذا يتبين أن المدة التي كان يستغرقها التفجر من قبلُ كانت تزيد على مئات السنين ثم بدأت تتناقص إلى أن وصلت إلى أقل من عشر سنوات، ومن ثم إلى عدة شهور.

ومن سمات العصر القادم أنه عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، ويشهد العصر ـ القادم تغيراً مستمراً ومتسارعاً في مجال التقانة، ومن ذلك أن واجهة المستخدم الحالي في التقانة قد بدأ في التغير، وستحل في المستقبل القريب واجهات جديدة مصممة للتعامل مع الأجهزة النقالة خاصة محل الواجهات الحالية التي تتضمن النوافذ، والأيقونات، والقوائم، والمؤشرات، حيث ستحل الواجهات الجديدة باللمس، وحركات اليد، والصوت، والفيديو، وسوف تتحول التطبيقات إلى تطبيقات أكثر تركيزاً وبساطة، ويمكن تجميعها في حلول أكثر تعقيداً. وهذه التغييرات سوف تدفع إلى الحاجة إلى مهارات جديدة لدى تصميم واجهة المستخدم.

وثمة أجيال جديدة من أنظمة التحليل لتوقع المستقبل، وأن ضخامة البيانات في المستقبل لن تسمح للمستخدمين بوضع جميع المعلومات المفيدة في مستودع بيانات واحد. وسينشأ نموذج جديد هو مستودعات البيانات المنطقية التي ستستقي بياناتها من مصادر مختلفة للمعلومات. وستشهد تقانة المعلومات والاتصالات تطوراً كبيراً، إن على مستوى الأفكار الإبداعية، أو فلسفة العمل، أو النماذج التقانية المختلفة[٨].

ومن سمات العصر القادم أيضاً أنه عصر المزاوجة بين العلم والعمل، والنظرية والتطبيق، وذلك في مختلف ميادين المعرفة، كما أنه عصر ـ الاتصال السريع، وما يترتب عليه من إزالة الحواجز بين المجتمعات والتأثر بالتيارات الثقافية المعاصرة وبالتيارات الفكرية والسياسية الجارية، وأن ثمة تناغماً بين أنظمته السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية...الخ.

ومن سمات العصر أيضاً أنه عصر الدعاية والإعلان والإعلام، وأن الدول المتقدمة تنفق

---

(٨) المهندس عبد الله عيسى- أهم عشر تقانات استراتيجية- مجلة المعلوماتية الصادرة عن الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية- السنة السابعة كانون الثاني ٢٠١٢- العدد٧١- دمشق ص١٩.

على إعلامها مبالغ طائلة، وتجند لخدمة أغراضها وأهدافها ومشروعاتها أساليب وطرائق لم تكن تعرفها المجتمعات من قبلُ، وأنها تتخذ الديمقراطية وحقوق الإنسان شعاراً لها في تنفيذ مراميها وأغراضها في الهيمنة على الشعوب المستضعفة وابتزازها، وهي كلمة حق أريد بها باطل!

ويتسم العصر القادم أيضاً بأنه عصر التغير الاجتماعي السريع في العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم الاجتماعية والمعنوية، وأن ثمة طغياناً للمادة فيه على القيم الروحية، وطغياناً لقيم الاستهلاك على القيم المعنوية.

ولابد من الإشارة أخيراً إلى أن من سمات العصر القادم الابتكار والتجديد، وإذا كنا قد شاهدنا في نهاية العقد الأخير من القرن الماضي وفي العقد الأول من قرننا الحالي ثورات في مجالات متعددة واكتشافات علمية، إن في السماء أو في أغوار المحيطات، فإن العصر القادم سيحمل مفاجآت متعددة في جميع مجالات الحياة والميادين العلمية.

ثالثاً- اللغة العربية ومتطلبات مواجهة العصر القادم

لما كان العصر القادم متغيراً باستمرار، ومتفجراً بمعارفه وتقنياته ولا بقاء فيه إلا للأقوياء بلغاتهم ومعارفهم، والمهيمنين بثقافتهم وإعلامهم، ومضطرباً بمعاييره وقيمه، كان على الأمة العربية، كي يكون للغتها البقاء والاستمرارية، ومواجهة تحديات هذا العصر، أن تعمل على:

١- حسم موضوع التعريب:

إن التسويف في تطبيق التعريب على نطاق الساحة العربية، والتلكؤ في اعتماد العربية لغة تدريس في الكليات العلمية في جامعات الوطن العربي، أمر يحتاج إلى إصدار القرار السياسي اللازم، إذ لا مسوّغ إطلاقاً لهذا التريث وذلك التسويف. وسيبقى الفكر العربي ناقصاً وغريباً إذا لم يقرأ، ويكتب، ويفكر فيه بالعربية، ذلك لأنه لا يتم فكر من غير لغة ذاتية له، ولا علم دون لغة تعبير ذاتية له. ولغتنا العربية، بما تتسم به من سمات الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب، مهيأة لمواكبة روح العصر، وتعليم علومه كافة بها، إذ إن ما تمتاز به من غزارة الاشتقاق، وفيض التصريف في أفعالها وأسمائها، جعلها تستوعب مصطلحات جديدة من غير أن تنزل عن أصولها

وقواعدها ونظامها، ومن ثم في تعبيرها عن حاجات العصر ومتطلباته[٩].

ولا يقتصر الأمر على دراسة العلوم مواد، وإنما لابد من دراستها طريقةً وتفكيراً وأسلوباً، مادام العصر هو عصر العلم، ومادامت اللغة هي وعاء الفكر.

٢- وضع قوانين لحماية اللغة العربية:

إذا أردنا للغة العربية أن يكون لها مستقبل باهر ومكانة في العصر القادم فما على الدول العربية كافة إلا أن تصدر القوانين لحماية اللغة العربية، إذ إن للغة حدوداً، كما للوطن حدود، لابد من حمايتها من عبث العابثين، وتجاوزات المعتدين. فإذا لم يكن الإحساس بالانتماء والوعي اللغوي متوفرين لدى الفرد، واستهان بلغته الأم، وكان عاقاً تجاهها، فإن القوانين الرادعة هي التي تضع حداً لهذه الشريحة من أبناء الأمة، على أن تطبق هذه القوانين على الأرض العربية، وعلى ممثلي الدول العربية في المحافل الدولية.

٣- اعتماد مبدأ التعلم الذاتي:

غني عن البيان أن طبيعة العصر القادم التفجر المعرفي والتطور السريع في مجال التقانة. ولما كانت المدارس والجامعات تزود الدارسين بأساسيات المعرفة ومفاتيحها فقط، كان عليهم كي يظلوا مواكبين روح العصر في تفجره المعرفي، أن يعتمدوا على أنفسهم في تلك المواكبة، ولا يمكنهم الاعتماد على أنفسهم إلا إذا كانوا مزودين بمهارات التعلم الذاتي، الذي هو أساس للتعلم المستمر مدى الحياة.

ويتجلى هذا التعلم الذاتي في البحث عن مصادر المعرفة في الموسوعات ودوائر المعارف وأمهات الكتب والمعاجم، إن في مجال التخصص، أو في مجال الثقافة العامة. وتعد المطالعة الحرة سبيلاً لزيادة المعرفة، وسعة الاطلاع، وزيادة الخبرات، كما أن التقنيات التربوية تساعد الباحثين في بحثهم، وتوفر لهم البيانات والمعلومات إن هم أحسنوا استخدامها، ووظّفوا معلوماتهم في

---

(٩) الدكتور محمود أحمد السيد- اللغة العربية وتحديات العصر- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٨ ص٩١.

تنمية مجتمعهم.

٤- استخدام التقانات الحديثة:

تؤدي التقانات الحديثة دوراً أساسياً في مواجهة العربية لمتطلبات العصر، ولابد من توظيف التقانة في خدمة اللغة العربية وفي مجالات تعليمها وتعلمها، إذ إن هذه التقانة قدّمت الآلات التعليمية وأساليب التعلم الذاتي باستخدام معامل اللغات والمعامل المصغرة والصور والأفلام وأجهزة العرض الحديثة والتلفزيون التعليمي والحواسيب والشابكة (الإنترنت)، وبذلك أصبحت الفرصة مواتية في المجال التعليمي لتفريد التعليم، بحيث يتعلم كل متعلم وفق استعداداته، وسرعته الخاصة، وميوله واهتماماته، تحقيقاً لأهداف التعلم الذاتي، والتعلم المستمر، والتعلم من أجل الإتقان.

وفي عصر العلم والتقانة والمعلوماتية أضحت اللغة هي الوجود ذاته، وأصبح هذا الوجود مرتبطاً بثقل الوجود اللغوي على الشابكة (الإنترنت). وقديماً قال سقراط لجليسه: «تكلم حتى أراك». أما اليوم فالشعار هو تحاور عن بعد حتى يراك الآخرون وتراهم، ومن ثم ترى ذاتك أنت، وهي بعيدة عنك، ولصيقة القرب منك، في عصر بات فيه سؤال الهوية: من أنا؟ ومن نحن؟ مطروحاً بشدة على أوسع نطاق[١٠].

وغني عن البيان أن نسبة ما هو متوفر على الشابكة بالعربية إنما هي نسبة ضئيلة، وأن متطلبات العصر القادم تقتضي رفع هذه النسبة إذا أراد أصحاب هذه اللغة استمرارية لغتهم، والحفاظ عليها، والتمكين لها في عصر التقانة.

٥- المرونة وتقبل التغيير:

وهذا مطلب أساسي من متطلبات العصر القادم، إذ مادامت طبيعة العصر القادم تتسم بالتغير السريع كان لزاماً على اللغويين أن يتسموا بالمرونة في تقبل التغير، فالتشدد اللغوي من جهة، والتمحل في استخدام اللغة، والتقعر في ذلك الاستخدام من جهة أخرى، ذلك كله ينفّر

---

(١٠) الدكتور نبيل علي ونادية حجازي- الفجوة الرقمية- عالم المعرفة- الكويت ٢٠٠٥ ص٣٠٦.

من اللغة، كما أن التشدد في وضع الأبدال والمقابلات لبعض المصطلحات الأجنبية التي أصبحت عالمية، وشاعت على الألسنة والأقلام، أضحى لا يخدم اللغة في توسعها وانتشارها وشيوعها.

ولا يقتصر الأمر على التشدد في الاستعمال اللغوي ووضع المصطلحات، وإنما جاوزه إلى التشدد في إلزام المعلمين اعتماد طريقة واحدة في أداء عملهم التدريسي، وهذا ما يعمل على تقييدهم وشلّ الابتكار لديهم. ومن هنا كان اعتماد أسلوب الانتقائية في الطرائق بحيث تؤخذ إيجابياتها وتتلافى سلبياتها، نهجاً يتطلبه العصر القادم.

٦- العناية بالصناعة المعجمية:

وتتجلى هذه العناية في العصر القادم بوضع معجمات عامة تجمع بين الأصالة والحداثة، ووضع معجمات نوعية في مختلف ميادين المعرفة على غرار المعجم الطبي الموحد، والمعجم الفلسفي، والمعجم التربوي والنفسي، ومعجم المعلوماتية...الخ. على أن تجدد مضامين هذه المعاجم باستمرار، وأن تواكب التفجر المعرفي في كل اختصاص، وعلى أن تنشر تلك المضامين على مواقع الشابكة (الإنترنت)، وأن توظف التقانة (التكنولوجيا) في صناعة تلك المعاجم وفي نشرها والترويج لها.

٧- اعتماد التربية في العمق تحقيقاً للإبداع والابتكار:

لما كان العصر القادم هو عصر العلم والابتكار كان على أبناء الأمة أن يتزودوا بأساليب التفكير العلمي لمواجهة مقتضيات العصر، وبالمستويات المعرفية كافة، حتى يتمكنوا من توظيف المعرفة في واقع الحياة.

وإذا كانت التربية التقليدية تعنى بالمستوى الأول من مستويات المعرفة حفظاً وتذكراً واسترجاعاً، فإن التربية المعاصرة تنتقل بالمتعلم من هذا المستوى الذي يعد من أدنى المستويات المعرفية إلى مستوى الفهم، ومن ثم إلى مستوى التطبيق، بحيث يكون المتعلم قادراً على تطبيق ما تعلمه في مجالات جديدة مما يجري في بيئته وحياته اليومية، وما يعرض له من مواقف.

ولم تتوقف عند هذا المستوى، وإنما جاوزته إلى مستوى التحليل والتركيب بحيث يكون الدارس قادراً على تحليل المواقف التي تعرض له داخل المدرسة وخارجها ليرى إلى أي حد

تراعى فيها الأفكار والمبادئ التي تعلمها، مع القدرة على ابتكار أساليب جديدة، تتضمن استخدام هذه المعلومات، وأخيراً يجيء مستوى الحكم الذي يعد من أرفع المستويات. وفي ضوئه يستطيع الدارس أن يصدر أحكاماً على المواقف التي تعرض له بمقتضى ما تعلمه نقداً، واقتراحاً، وتجديداً[١١].

والتربية الفعالة هي التي تحقق المستويات السابقة كلها في العملية التعليمية التعلمية، وتركز على التربية الناقدة التي تميز بين الغث والسمين، في عصر اختلطت فيه الأوراق، واضطربت فيه المعايير، وامتزج السم بالعسل، والزيف بالحقيقة. كما أنها تعمل في الوقت نفسه على تفجير الطاقات الإبداعية لدى الناشئة حتى يتكيفوا مع الأوضاع الجديدة المتغيرة في عصر، يتميز بكثرة التغيرات وسرعتها المذهلة.

ولقد وجد أن الإنسان يحقق ذاته في الإبداع، ومن خلال الإبداع، كما لوحظ أن النشاط الإبداعي يزود الناشئة بدافع داخلي يفوق في نوعيته وفعاليته جميع الدوافع الخارجية، وما النشاط الإبداعي إلا عملية تحليلية أولاً، فتركيبية ثانياً.

وتجدر الإشارة إلى أن من الأمور التي تؤدي إلى الإبداع تربية الإرادة القوية، والتعلم الاكتشافي، والتعلم الذاتي، والشك، والتعزيز، والتفاؤل، والتفكير المنظومي.

ولقد أشار جبران خليل جبران إلى أن مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع، فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية[١٢].

ويسأل: ما هذه القوة التي ندعوها قوة الابتكار؟ فيجيب: «هي في الأمة عزم دافع إلى

---

(١١) الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق ١٩٩٢ ص٣٨.

(١٢) فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية- مرجع سابق ص٣٧.

الأمام، هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وهي في روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلاً نهاراً، ولكنها لا تحقق حلقة من أحد طرفيها إلا أضافت حلقة جديدة في الطرف الآخر.

وهي في الأفراد النبوغ، وفي الجماعة الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى القدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في أشكال ظاهرة محسوسة[١٣].

ويرى جبران أن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة، هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين. الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما يسير، وتربض أينما يربض، وإذا ما قضى، جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر، ويأخذ بيدها.

ويتابع جبران قائلاً: «إذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها فالمقلد ناسج كفنها، وحفار قبرها. وأعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان أو صغيراً، وكل مكتشف قوياً كان أو ضعيفاً، وكل من لم يقف متهيباً أمام الأيام والليالي فيلسوفاً كان، أو ناطوراً للكروم. أما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، بل يستمد حياته النفسية من معاصريه، ويضع أثوابه المعنوية من رقع، يجزها من أثواب من تقدمه»[١٤].

ومن هنا كانت طبيعة العصر القادم تحتم على العربية:

أ- الاهتمام بالقراءة الناقدة.

ب-الاهتمام بالمناشط اللغوية اللاصفية «مجلة المدرسة، مجلة الحائط، الإذاعة المدرسية، المناظرات، الحوارات واللقاءات، عقد الندوات، إلقاء المحاضرات، إجراء المسابقات...الخ».

---

(١٣) المرجع السابق ص٣٨.

(١٤) المرجع السابق ص٤٥.

ج- الكشف عن المواهب.

د- العمل على تنمية الموهوبين والمبدعين وتربية الإبداع.

هـ- تكريم الفائزين والموهوبين والمبدعين في جميع المجالات والفنون الأدبية.

٨- إعداد الفرد للحياة:

ثمة من يرى أن أفضل إعداد للفرد إنما هو الإعداد للحياة؟ فما المقصود بإعداد الفرد للحياة؟ إن خصائص العصر القادم تحتم على الفرد أن يكون قادراً على فهم بيئته التي يتفاعل معها، والسيطرة عليها، والانتفاع بها إلى أقصى حد ممكن، تحقيقاً لاستمرار نمو الفرد، والمجتمع، وازدهار البيئة.

إلا أن إعداد الفرد لا يقتصر على إعداده للمجتمع فقط، ذلك لأن المجتمع يفهم عادة على أنه جسم ذو كيان مادي محسوس، وعلاقات مادية محسوسة، وقيم مادية محسوسة، أو نابعة من المادة. أما إعداد الفرد للحياة فذلك لأن الحياة هي الكينونة كلها بما فيها من جسد وروح، ومادة وفكر، ومن أعضاء ووظائف. والمجتمع يفهم عادة على أنه مجتمع بعينه، محدود بحدود الزمان والمكان. أما الحياة فهي بغير حدود، وهي تيار مستمر يدخل فيه الماضي والحاضر والمستقبل، وهي تشمل هذا المجتمع، وذاك المجتمع، وكل مجتمع، أي تشمل المجتمع القومي خاصة، والمجتمع الإنساني بوجه عام[١٥].

وبهذا تكون الدعوة للحياة دعوة قومية ودعوة إنسانية معاً، ودعوة مادية وروحية، ودعوة اجتماعية وفردية. وتعليم اللغة وتعلمها ينبغي لهما أن يحققا تلك الدعوات لدى الفرد وذلك من خلال النصوص التي يتفاعل معها الدارسون، على أن يتم اختيار هذه النصوص في ضوء نسقين زماني ومكاني، إذ يحرص في النسق المكاني على الامتداد من الدائرة المحلية إلى الدائرة القومية، ومن ثم إلى الدائرة الإنسانية، بحيث تكتسب المناهج التعلمية ملامح الواقع المحلي، دون أن تنعزل عن الواقع القومي، ثم تنطلق من ذلك كله إلى الأفق الإنساني الواسع ليلتحم بالتجربة

---

(١٥) الدكتور لويس عوض- الاشتراكية والأدب- دار الآداب- بيروت ١٩٦٣ ص٨.

الإنسانية في قيمها الجمالية العليا، وإنجازاتها الحضارية المشتركة[١٦].

وإذا أردنا للغتنا العربية أن تستجيب لمتطلبات العصر القادم فإن على واضعي المناهج التعليمية أن ينتقلوا من الدائرة القطرية الضيقة إلى الدائرة القومية على الصعيد العربي، ومنها إلى الدائرة الواسعة، ألا وهي الدائرة العالمية، وأن يطلع المتعلمون على الآداب العالمية، في الوقت الذي يطلعون فيه على آداب أمتهم الماضية، والحاضرة، وتوجهاتها المستقبلية، وذلك بعد أن أصبح العالم قرية كونية.

٩- العناية بلغة الطفولة المبكرة والتعليم الأساسي:

طالما رددنا القول: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»، وطالما أهملنا الطفولة المبكرة في حياة أمتنا مع أن الدراسات والبحوث العلمية أثبتت أن العصر الذهبي لاكتساب اللغة، لا بل أكثر من لغة، إنما هو في هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل. فإذا أردنا للعربية في العصر القادم أن تشيع وتكتسب فلنعتنِ برياض الأطفال والتعليم الأساسي، بحيث تكون مربيات الرياض ومعلمات التعليم الأساسي ومعلموها على درجة كافية وعالية من التأهيل والقدوة الحسنة في ممارسة اللغة.

وتجدر الإشارة إلى أن لغة الطفل هي الأساس في تعلم اللغة، إذ تتخذ نقطة انطلاق، وقد يقول قائل: كيف ننطلق منها وهي العامية؟ إن الانطلاق يكون بتصحيح ما فيها من تحريف مما يحولها من عامية إلى عربية، بحيث يبذل الجهد لتهذيب هذه اللهجة العامية، ويزود الطفل بين الحين والآخر بكلمات عربية صحيحة، ترادف ما يستعمله من الألفاظ العامية، مع ملاحظة أن تكون قريبة في شكلها من عامية الطفل.

«ويبدو من الوهلة الأولى أن هذا النهج يتعارض مع وجوب طبع النشء على العربية السليمة منذ البداية، وليس هناك في الواقع أي تعارض، إذ إن المقصود هو جعل لغة الأطفال

---

(١٦) الدكتور نهاد موسى- استعراض تجربتي عمان واليمن في تعليم اللغة العربية- اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير- مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية- أبو ظبي ٢٠٠٨ ص٤٠٥.

منطلقاً لتعليم العربية بتصحيح ما فيها من تحريف، وبهذا يتجمع للطفل رصيد لفظي من الفصيحة بأيسر السبل، على أن يزداد هذا الرصيد بما يدرسه التلاميذ من قصص وأناشيد بعد ذلك بالعربية الفصيحة»[١٧].

١٠- تفصيح العاميات:

مادامت العاميات في الوطن العربي مستعملة في التعبير عن الحاجات وتنفيذ المتطلبات، ومادام في هذه العاميات حيّز من الفصيح، كما أن بعض المفردات العامية تحتاج إلى تعديل طفيف في بعض حروفها حتى تعود إليها الفصيحة، كان الأمر يتطلب تفصيح هذه العاميات والارتقاء بها إلى مصاف الفصيحة، وفي ذلك خدمة للعربية في مستقبلها، وينعكس هذا التفصيح إيجابياً على مسيرة الفصيحة.

١١- إعداد المعلمين الأكفياء:

إن طبيعة العصر القادم تستلزم إعداداً رفيع المستوى للمعلمين كافة، على أن تزوِّد مناهج التأهيل والإعداد المعلمين بالتمكن من المادة ومهارات التواصل باللغتين العربية والأجنبية انسجاماً مع طبيعة العصر، وأن تُزوَّد البيئة التعليمية التعلمية بمختلف مصادر التعلم، وأن تكون ثمة مبادرات يقوم بها المعلمون لإغناء البيئة واستخدام التقانة في تيسير العملية التعليمية التعلمية، وعلى أن يركِّز المعلمون على ربط المعارف النظرية بالعملية، وعلى الجوانب التطبيقية، وتعليم المتعلم كيف يتعلم؟ وكيف يعتمد على ذاته في اكتساب المعلومات واكتشافها؟ وكيف يتعلم تعاونياً مع أقرانه ضمن فريق عمل، يقوم بإنجاز المشروعات وحل المشكلات؟[١٨]

ولابد أن يخضع المعلمون إلى دورات تدريبية مستمرة تجديداً لمعلوماتهم وأساليب تعليمهم،

---

(١٧) الدكتور محمود أحمد السيد- في طرائق تدريس اللغة العربية- مطبوعات جامعة دمشق- دمشق ٢٠٠٨ ص٢٧٨.

(١٨) الدكتور محمود أحمد السيّد- دراسات تربوية- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة- دمشق ٢٠١٠ ص٨٤.

على أن تستخدم العربية في تلك الدورات، وأن يستعملها المعلمون كافة، وليس الأمر مقتصراً على معلمي العربية وحدهم وإنما يشمل معلمي المواد كافة، مادامت اللغة وعاء المعرفة في جميع ميادينها.

١٢- حرية المعلم:

إذا كانت التربية التقليدية تحد من حرية المعلمين، وتجبرهم على التقيد بالمناهج مضموناً، وطرائق تدريسية، وأساليب تقويم، فإن التربية الحديثة والمستقبلية تدعوان إلى حرية المعلم، فهو حر في اختيار طريقة التدريس التي يراها ملائمة لتحقيق أهداف درسه، كما أنه حر في اختيار النصوص الأدبية التي يراها مناسبة لمستويات الناشئة الذين يتفاعل معهم، وهو حر في اختيار أساليب التقويم الملائمة، على أن تكون هذه الحرية منظمة ومسؤولة في إطار الأهداف العامة للتربية في الدولة، ومنسجمة مع قيم الأمة وأصالتها، وتوجهاتها.

١٣- تفعيل المجامع اللغوية:

لما كانت المجامع اللغوية هي المرجعية العليا في شؤون اللغة العربية كان عليها واجب متابعة القضايا اللغوية، والعمل على كل ما من شأنه حماية اللغة العربية، والعناية بها، ومعالجة مشكلاتها، والاهتمام بإتقانها، والارتقاء بها.

وإذا كان التفجر المعرفي سمة من سمات العصر، ويحمل هذا التفجر مصطلحات جديدة في مختلف ميادين المعرفة كان على مجامع اللغة أن تتابع رصد هذه المصطلحات، ووضع البديل العربي لها قبل شيوعها وانتشارها على الألسنة والأقلام، ويصبح من الصعوبة بمكان محوها واستعمال البديل العربي المقابل لها. ومن هنا كان لابد من تفعيل عمل لجان مجامع اللغة العربية القائمة في الوطن العربي، وتفعيل عمل اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في سرعة البت، والتنسيق، مواكبة لمتطلبات العصر.

ومن متطلبات العصر القادم توسيع دائرة المجامع اللغوية في الوطن العربي، بحيث يعمل على إنشاء مجمع لغوي في كل دولة عربية يضطلع بدوره في الحفاظ على الفصيحة والارتقاء بواقعها.

١٤- الإكثار من جمعيات التمكين للعربية وحمايتها:

طالما حمّلنا في كثير من ندواتنا ومؤتمراتنا المجامع اللغوية، أو وزارات التربية، مسؤولية تدني المستوى اللغوي، وطالما قذفنا الكرة من طرف إلى آخر، علماً بأن مسؤولية النهوض باللغة هي مسؤولية جماعية، وعلى جميع الأطراف أن تضطلع بدورها في مجال الارتقاء بالواقع اللغوي، وأن يكون ثمة تنسيق بينها في ضوء استراتيجية واحدة متفق عليها.

وتؤدي جمعيات التمكين للغة وحمايتها، وجمعيات أصدقاء اللغة العربية، دوراً أساسياً في العناية باللغة، والاهتمام بقضاياها، والعمل على سيرورتها وانتشارها، والحؤول دون التعدي على سلامتها. كما يؤدي العمل التطوعي دوراً هو الآخر في الحفاظ على اللغة السليمة في مرافق المجتمع وقطاعاته.

ومن الملاحظ أن ثمة تقصيراً في هذه الجوانب في حياتنا المعاصرة، إلا أن العصر القادم يتطلب منا بغية الحفاظ على موقع اللغة الفصيحة ومكانتها، الإكثار من جمعيات حماية العربية وأصدقائها ولجان التمكين لها، وتفعيل العمل التطوعي لخدمتها.

وإذا كنا نرى جمعيات لحماية البيئة وأصدقاء لها، تعمل على الحد من تلوث البيئة، والتخفيف من حدته، فإن التلوث اللغوي في البيئة جدير، هو الآخر، بأن تكون له جمعيات، تعمل على تنقية البيئة الاجتماعية من التلوث الفكري، والتلوث اللغوي، بعد أن استشرى هذا التلوث في مجالات متعددة، ولاسيما المجال الإعلامي، وعلى واجهات المحال التجارية، والخدمية، والسياحية، وفي اللافتات، والإعلانات.

وتقوم هذه الجمعيات أيضاً بالتوعية اللغوية، وتعزيز الانتماء إلى جانب عملها في الحفاظ على سلامة البيئة الاجتماعية من التلوث اللغوي.

١٥- العناية بالترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأخرى:

إن من متطلبات العصر القادم العناية بالترجمة لأن ثمة قصوراً كبيراً في مجالاتها إن على مستوى تكوين المترجمين وتدريبهم، أو على مستوى ما يترجم إلى العربية من اللغات الأخرى، أو ما ينقل من العربية إلى تلك اللغات، أو على مستوى حماية حقوق المترجمين.

وتلافياً لهذه الثغرات كان لابد لمواكبة العصر القادم من وضع خطط للترجمة على الصعيدين المحلي القطري والقومي، والعمل على ترجمة الأعمال التي تهيئ لتعريب التعليم في الجامعات والمعاهد العلمية، وتوفير ما يحتاج إليه المدرسون والطلاب في مختلف المجالات والتخصصات، وترجمة الدوريات الصحية، والأكاديمية، والتقانية، والبحوث، والرسائل الجامعية، تمشياً مع تدريس العلوم والتقانة باللغة العربية.

ولابد أيضاً من ترجمة المزيد من البرامج التلفزية التي تعمل على زيادة ثقافة المجتمع «برامج طبية، وصحية، وتوجيه أسري، وتعاون اجتماعي، وأعمال إنسانية، وأسرار كونية، وأسرار الصناعة...الخ». وترجمة الأفلام والمسلسلات التلفزية المناسبة، والمزيد من برامج المعلوماتية وأنظمتها، والنشرات، والكراسات الملحقة بالأجهزة، والأدوات، والمواد المستوردة [١٩].

وإذا كان العصر القادم يتطلب الترجمة إلى اللغة العربية فإنه يتطلب أيضاً تعريف الآخرين من أبناء اللغات الأخرى بالحضارة العربية، وما أسهم به العرب في مسيرة الحضارة الإنسانية، ولابد من نشر روائع القيم الإنسانية في الثقافة العربية، وإطلاع الآخرين عليها لمواجهة سيرورة القيم المادية وانحسار القيم المعنوية والإنسانية من العالم. وتلك هي مسؤولية أبناء الأمة العربية، ولكم هم مقصرون في هذا المجال إلى جانب تقصيرهم في ترجمة ثمرات العقول العالمية إلى العربية!

١٦- الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية:

إن العناية بالترجمة إلى العربية، ومنها إلى اللغات الأخرى، تستلزم الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية، لأن إتقان اللغات الأجنبية إلى جانب إتقان اللغة العربية يسهم أيما إسهام في إغناء اللغة العربية، وينسجم ومقتضيات العصر القادم، ويحقق الربط الوثيق بين الأهداف القومية والإنسانية معاً، إذ من الأهمية بمكان تعلم اللغات الحية لتعرف منجزات التقدم الإنساني، دون

---

(١٩) الدكتور محمود أحمد السيّد- اللغة العربية واقعاً وارتقاء- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠١٠ ص١٠٤.

أن يعني هذا إهمال لغتنا القومية، أو يكون مدعاة للشعور بالدونية تجاه الآخرين.

وإن الدعوة إلى تمكين العربية في المستقبل ليست ضد تمكين اللغة الأجنبية، فالحاجة إلى إتقان لغة أجنبية عالمية أو أكثر من لغة هي ضرورة ثقافية ومطلب حضاري أساسي لكل مثقف عربي أو غير عربي، مهندساً كان، أو طبيباً، أو خبيراً زراعياً، أو صناعياً، ليبقى على اتصال بمنجزات الركب العلمي في مجال اختصاصه، والوقوف على آخر ما توصل إليه نظراؤه في العالم من حوله[٢٠].

تلك هي بعض الإجراءات لمواجهة تحديات العصر القادم، ولسنا في مجال الحصر، وإنما هي بنود قليلة من الإجراءات، وغيض من فيض، مما ينبغي لنا عمله تجاه الارتقاء بواقع لغتنا العربية في العصر القادم. وما من ريب في أن ما يجب عمله كثير وكثير، ومالا يدرك كلُّه لا يترك جلُّه، وكلنا أمل في أن تتبوأ لغتنا الأم «العربية الفصيحة» المكانة الجديرة بها في مستقبل الأيام، وأن يتوفر لخدمتها أبناء بررة، لأنها الشيء الوحيد الذي بقي في أيدينا على حدّ تعبير أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله:

لم يبقَ شيء بأيدينا سوى لغة نصونها بسواد القلب والهدب

(٢٠) المرجع السابق ص١٠٥.

مراجع البحث

١- عبد الله عيسى- أهم عشر تقانات استراتيجية- مجلة المعلوماتية الصادرة عن الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية بدمشق- السنة السابعة- كانون الثاني ٢٠١٢ العدد ٧١.

٢- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية- منشورات وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٣.

٣- الدكتور لويس عوض- الاشتراكية والأدب- دار الآداب- بيروت ١٩٦٣.

٤- محمد الخضر حسين- دراسات في العربية وتاريخها- منشورات المكتب الإسلامي- مكتبة دار الفتح- المطبعة التعاونية في دمشق- دمشق ١٩٦٠.

٥- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق ١٩٩٢.

٦- الدكتور محمود أحمد السيّد- اللغة العربية وتحديات العصر- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠٠٨.

٧- الدكتور محمود أحمد السيّد- في طرائق تدريس اللغة العربية- مطبوعات جامعة دمشق- دمشق ٢٠٠٨.

٨- الدكتور محمود أحمد السيّد- دراسات تربوية- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠١٠.

٩- الدكتور محمود أحمد السيّد- اللغة العربية واقعاً وارتقاء- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة السورية- دمشق ٢٠١٠.

١٠- الدكتور نهاد موسى- استعراض تجربتي عمان واليمن في تعليم اللغة العربية- اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير- مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية- أبو ظبي ٢٠٠٨.

الباب الثاني

في

التراث العربي

الفصل الأول- التراث مفهوماً وحدوداً ومواقف

الفصل الثاني- التراث العربي سمات ومكانة

الفصل الثالث- التراث العربي عصرنةً ونماذج

الفصل الرابع- صوى على درب النهوض بالتراث العربي وإحيائه

الفصل الأول

التراث مفهوماً وحدوداً ومواقف *

(*) قسم من بحث ألقي في المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٩.

الفصل الأول

التراث مفهوماً وحدوداً

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف التراث مفهوماً وحدوداً، وأن نبين موقف كوكبة من المفكرين العرب من حيث نظرتهم إلى التراث العربي ومواقفهم منه.

أولاً- التراث مفهوماً وحدوداً

التراث لغةً مصدر من الفعل وَرِث، إذ يقال: ورِثَ فلاناً أي انتقل إليه مال فلان بعد وفاته، ويقال: وَرِث المال والمجد عن فلان: إذا صار مال فلان ومجده إليه.[1]

وفي ضوء هذا المعنى اللغوي يشمل التراث الأمور المادية والمعنوية، فهو يشمل كل ما خلفته لنا الأجيال السابقة في مختلف الميادين الفكرية والأثرية والمعمارية «متمثلاً في الأرض التي نحيا عليها، وما أنشئ على هذه الأرض من معالم وآثار، وما حفظ في داخلها من خيرات، وما ابتدعه عقل الأمة من مبتكرات، وما صنفه من تآليف، وما سجّله من رسوم، وما خطَّه من مناهج، ورسمه من سبل، ونظمه من مسالك وطرق، وآثار ذلك كله في أخلاق الأمة وعاداتها وأنماط عيشها وسلوكها وتقاليدها».[2]

فتراثنا العربي هو مجموعة من القيم والمثل والأعمال والمضامين والأشكال التي وصلت إلينا عبر القرون لتكون خلفيتنا وحالنا وكثيراً من مستقبلنا، فهو ذاكرة الأمة العربية ورؤية الإنسان العربي للواقع والمجتمع والكون والمستقبل.[3]

---

(١) الدكتور يوسف محمد رضا- معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة- مكتبة لبنان- ناشرون- بيروت ٢٠٠٦ ص١٧١٧.

(٢) الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر- التراث ودوره في البناء الحضاري المعاصر- وزارة الشؤون الثقافية بتونس- ١٩٧٦ ص١٢٦.

(٣) عز الدين المدني- معالجة التراث واستعماله في الأدب التونسي الحديث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر- المرجع السابق ص٢١٤.

وثمة من الباحثين من يرى أن مفهوم التراث يحمل معنيين مترابطين يتولد ثانيهما عن أولهما، وأول هذين المعنيين أن التراث هو المنجز التاريخي لاجتماع إنساني في المعرفة والقيم والتنظيم والصنع، ويتجسد هذا المفهوم في تراثنا في قطاعات رئيسة أربعة وهي: (٤)

١- **القطاع المعرفي**: وفيه مختلف العلوم والمعارف «علوم اللغة، العلوم العقلية، العلوم الأساسية والطبيعية، العلوم الدينية، علوم القرآن، علوم الحديث، الفقه ومذاهبه...الخ».

٢- **قطاع القيم**: وفيه أنماط التفكير والسلوك والعادات والقيم الأخلاقية والاجتماعية والجمالية الموجهة للفكر والإبداع والسلوك والحياة.

٣- **قطاع النظم والمؤسسات**: ومنه المؤسسات والنظم التي تستند إليها الشؤون العلمية والاجتماعية والقانونية والإدارية والاقتصادية والعسكرية «الأسرة، المدرسة، المسجد، الديوان، القضاء، الولاية، الخلافة، الوزارة، الجيش، الخراج، مما يدخل جلّه في باب الأحكام السلطانية».

٤- **قطاع الإبداع والصنع**: وفيه كل الإبداعات الأدبية والفنية الصادرة عن الحاسة الجمالية، وكل المنتجات الصنعية أو التقنية المتولدة عن فعل «اليد» المقودة «بالفكر»، ويدخل في الإبداعية منها الأدب بأشكاله المختلفة والغناء والموسيقا والموروث الشعبي الشفوي، وفي الصنعية منها: الفنون المعمارية والزخرفية والتصويرية والأدوات المادية.

وبهذا المعنى يبدو التراث كأنه هو الحضارة نفسها، أو أن التراث هو المادة والحضارة هي الصورة، والفرق الظاهر بينهما يكمن في أن مفهوم الحضارة يبدو ذا إيحاء معنوي ونظرة شاملة إلى العالم، في الوقت الذي يبدو فيه مفهوم التراث ذا إيحاء تشخيصي- يحيل إلى جملة من المنجزات العيانية الوضعية.

أما المعنى الثاني الذي يحمله مفهوم التراث فيتمثل في أن التراث هو كل ما هو حاضر في

---

(٤) الدكتور فهمي جدعان- التراث العربي- الشرق الأوسط- العدد ٥٥٢٣ تاريخ ١١/ ٤/ ١٩٩٤ ص١٢.

وعينا الشامل وفي تشخيصنا الحاضر مما ينحدر إلينا من التجارب الماضية في المعرفة والقيم والنظم والمصنوعات...الخ.

ومن هنا ينظر إلى التراث «لا على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه تمام هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات، وبعبارة أخرى إنه في آن واحد المعرفي والإيديولوجي وأساسهما العقل وبطانتهما الوجدانية في الثقافة العربية الإسلامية».[٥]

وفي ضوء ذلك يكون التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أو ماضي غيرنا القريب منه أو البعيد، وهذا التعريف للتراث عام، «فهو يشمل التراث المعنوي من سلوك وفكر، والتراث المادي كالآثار وغيرها، ويشمل التراث القومي «ما هو حاضر فينا من ماضينا»، والتراث الإنساني «ما هو حاضر فينا من ماضي غيرنا»، كما يربط تراث الماضي بالحاضر مباشرة، فليس التراث ما ينتمي إلى الماضي البعيد وحسب، بل هو أيضاً ما ينتمي إلى الماضي القريب، والماضي القريب متصل بالحاضر، والحاضر مجاله ضيّق فهو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل، وما فينا أو معنا من حاضرنا من جهة اتصاله بالماضي هو تراث أيضاً.[٦]

ويذهب بعضهم إلى أن التراث قد اكتسى في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنى مختلفاً مبايناً إن لم يكن مناقضاً لمعنى مرادفه «الميراث» في الاصطلاح العربي القديم، ذلك أنه لما كان لفظ «الميراث» يفيد التركة التي توزع على الورثة أو نصيب كل منهم منها، أصبح لفظ «التراث» يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جمعاً خلفاً لسلف، فإذا كان «الإرث» أو «الميراث» هو عنوان اختفاء الأب، وحلول الابن محله فإن «التراث» أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنواناً على حضور الأب

---

(٥) الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١ ص٢٤.

(٦) المرجع السابق ص٤٥.

في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر.[٧]

ثانياً- حدود التراث

ما يزال مفهوم التراث قاصراً لدى بعضهم في حياتنا المعاصرة، إذ إنه حين يذكر يتجه القصد منه غالباً إلى نطاق ضيّق محدود يحصره في قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام، فإذا كل ما ينشر من التراث أو أكثر لا يعدو ذخائر العربية: لغة وبلاغة وأدباً، والإسلام: عقيدة وشريعة وفلسفة وتاريخاً، وإذا جمهرة المشتغلين من العرب بتحقيق التراث هم من علماء العربية وفقهاء الإسلام والمتخصصين في درس فلسفته وتاريخه.

وثمة خطر في أن يترّسخ هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا فيغيب عنا أول ما يغيب أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم من طب وعقاقير وكيمياء ونبات وفلك ورياضيات...الخ.

ومن الفهم القاصر أيضاً أن ثمة من يرى أن حدود تراث أمتنا العربية يقف عند بداية التاريخ الإسلامي، والواقع أنه يمتد مع ماضي الأمة موغلاً في أعماق الزمن، فماضي كل الشعوب التي أسلمت وتعربت هو من ماضي هذه الأمة، وكل الحضارات الفكرية والمادية التي ازدهرت في أرضنا العربية هي في الواقع التاريخي ميراثنا جميعاً.

وهذا الإدراك الواعي يصحح ما شاع فينا من أن مكاننا في التاريخ الحضاري لم يأخذ دوراً قيادياً إلا في العصر الوسيط حين كان الشرق الإسلامي مناراً للعلم والمعرفة والتمدن وأوربا غارقة في ظلمات عصورها الوسطى، وهذا القول الشائع نشأ عن جهل أو غفلة عن الواقع التاريخي الذي يشهد بأن الأمة العربية في العصر الإسلامي قد اندمجت فيها كل الشعوب التي تعربت، فصار ماضيها كله من ماضي هذه الأمة.[٨]

ومن هنا لا يجوز أن نقف بالتراث العربي عند حد زماني أو مكاني يحصره في نصوص

---

(٧) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)- تراثنا بين ماض وحاضر- دار المعارف ١٩٧٠ ص٨.

(٨) المرجع السابق.

الأدب الجاهلي وذخائر علوم العربية والتاريخ الإسلامي، بل تمتد أبعاده فتستوعب التراث القديم لكل أقطار وطننا العربي على امتداد الزمان والمكان منذ أقدم العصور إلى الآن.

ثالثاً- مواقف من التراث

إذا ألقينا نظرة على موقف الناس من التراث فإننا نلاحظ أن ثمة فريقاً يدافع عنه، ويرى أن نهوض الأمة لن يتأتى إلا بالاستناد إليه والعودة إلى كنوزه، ورحم الله أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي إذ يقول:

منه إشراقنا ولولا الجذور الخضر ما هزت الصبا أغصانا

ورحم الله شاعرنا بدوي الجبل إذ يقول:

وإذا رفَّت الغصون اخضراراً فالذي أبدع الغصون الجذور

وفي الوقت نفسه نلاحظ أن ثمة فريقاً آخر يرى أن التراث مسؤول عن هزائم الأمة، وأنه عبء على الأمة في نهضتها، ويذهب فريق ثالث إلى الجمع بين الأصالة في تراث الأمة والحداثة في حياتنا المعاصرة أي الجمع بين الأصالة والمعاصرة. لأن تراثنا العربي يشتمل على كل ما يمكن أن يشتمل عليه تراث أمة، ففيه الجانب العقلاني، والجانب الخرافي، فإذا كنت تريد أن تحتج بالتراث وتستضيء به على اتجاهك العقلاني فأنت واقع فيه على ما تريد، وإن كنت تريد تأييد مذهب يدعو إلى الحياة والاستمتاع بها فهو يمدك بمئات الشواهد، وإن كنت تريد تأييد مذهب زهدي فأنت واقع فيه على مجلدات وقصص وأخبار لا نهاية لها، وإن كنت ممن يؤمن بالغرائبيات وقصص المخلوقات الخفية فإنه يقدم لك زاداً شهياً يفوق ما تريد، وإن كنت تؤيد مذهباً أو فكرة تتشح بالغموض فإنه يمدك بغموض الغموض في نصوص قد لا تجد لها مثيلاً إلا بعد لأيٍ عند أمم أخرى، وقل مثل ذلك عن اتجاهات التشاؤم أو التفاؤل والكرم والبخل والعقل...الخ.[٩]

ومن الباحثين الذين رصدوا مواقف النظر إلى التراث الدكتور محمد عمارة، إذ إنه أشار إلى

---

(٩) الدكتور عبد الإله نبهان- التراث العربي: مفهومه ومواقف المفكرين- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية- دمشق ٢٠٠٩ ص٤.

مواقف ثلاثة هي:[١٠]

١- موقف الثورة على كل المواريث.

٢- موقف الجمود عند لون واحد من التراث.

٣- موقف السلفيين العقلانيين.

ويتبنى الموقف الثالث قائلاً: إنه الموقف الحق بين موقفين باطلين لعجز أصحابها عن الرواية الشمولية والشاملة للجوانب المتعددة والمختلفة للظواهر التي يدرسون.

ففي الدين علينا أن نكون سلفيين عقلانيين مستنيرين، وفي الدنيا والحضارة وعلومها علينا أن نكون مستقبلين نحتكم إلى العقل والتجربة، ونواكب الركب الساعي لتلبية مصالح الأمة وحاجاتها، منطلقين من المقولات والقيم و القسمات التراثية المبدعة والخلاقة والتي ما تزال صالحة للعطاء والاستلهام والفعل في هذه الميادين.

وذهب الدكتور غالي شكري إلى أنه لا سبيل لثورة ثقافية عميقة دون أن تشمل قضية التراث وذلك بإعادة نظر جذرية تتناول «المحرمات» كافة التي عانى الفكر العربي من تجاهلها أمداً طويلاً. ورأى أن المعاصرة ترتبط بأوربا وأن الأصالة هي الواقع بكل ما يشتمل عليه من عناصر ومن بينها التراث، وأن تكون المعاصرة هي استخدام المنهج العلمي في التفكير وحينئذ تختفي المعاصرة على أنها مرادف للاستيراد من أوربا كما تختفي الأصالة على أنها مرادف للتراث، وتمسي أصالتنا ومعاصرتنا رهناً بموقفنا من واقعنا.[١١]

ورأى الدكتور زكي نجيب محمود أن في تراثنا المعقول وفيه اللامعقول ، وقد يخطر على بالنا أننا إذا أردنا الجمع بين الأصالة والمعاصرة فلنتبنّ المعقول ولننبذ اللا معقول، ولكنه يرى أن تراثنا العربي ما هو إلا اجترار في اجترار، وأن الألوف من المجلدات لا تضيف حرفاً واحداً جديداً فهي شروح وشروح للشروح، وتعليق، وتعليق على التعليق، وأن التراث العربي ما عدا

---

(١٠) الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة- بيروت- ١٩٨٠ ص١١.

(١١) الدكتور غالي شكري- التراث والثورة- دار الطليعة- بيروت- ١٩٨٤ ص٢٧.

أصولاً قليلة جداً فيها أصالة وابتكار، إلا أن هذا التراث كله فقد مكانته في عصرنا لأنه يدور أساساً على محور العلاقة بين الإنسان والله، على حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان.[١٢]

أما الدكتور محمد عابد الجابري فقد رأى مدرستين في تراثنا العربي، مدرسة فلسفية في المشرق، ومدرسة فلسفية في المغرب والأندلس، وتمثل المدرسة الأولى الروح السينوية نسبة إلى ابن سينا وتمثل المدرسة الثانية الروح الرشدية نسبة إلى ابن رشد، وثمة قطيعة بين المدرستين في المنهج والمفاهيم والإشكالية.[١٣]

ولقد تجلت المدرسة السينوية في وصفها استمراراً على صعيد الفكر المجرد لإيديولوجيا سابقة استنفدت كل طاقتها الثورية وأصبحت إطاراً يحمل محتوى معرفياً متخلفاً لم يعد قادراً على تقديم أي حل لأي مشكلة سوى الهروب من عالم المشكلات، عالم الواقع الحي المتموج والمضطرب. وقد استوحت المدرسة السينوية آراء الفلسفة الدينية التي سادت في بعض المدارس السريانية القديمة كمدرسة حرَّان، وهي متأثرة إلى حد بعيد بالأفلاطونية المحدثة.

أما المدرسة الرشدية فقد تأثرت بالحركة الإصلاحية التي قادها ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين وشعارها ترك التقليد والعودة إلى الأصول.

وإذا كان المشارقة يعملون على دمج الدين في الفلسفة لبناء دولة الخلافة على أساس العقل الكوني اليوناني لا العقل التجريبي المعتزلي والأشعري فإن فلاسفة المغرب تحرروا من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية التي جثمت على المشرقيين، ولم يكن لديهم المسوّغ لدمج الدين في الفلسفة بعد أن عمل ابن رشد على الفصل بين الدين والفلسفة إنقاذاً للدين والفلسفة.[١٤]

---

(١٢) الدكتور زكي نجيب محمود- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت- ١٩٧١ ص١١٠.

(١٣) الدكتور محمد عابد الجابري- نحن والتراث- دار الطليعة- بيروت ١٩٨٠ ص٢٣٢.

(١٤) المرجع السابق ص٢٦٣.

وهكذا يخلص الجابري إلى أن المدرستين المشرقية والمغربية الأندلسية تمثلان اتجاهين عقليين متناقضي الاتجاه، فالرشدية عقلانية واقعية، والسينوية والفارابية عقلانية صوفية. فالمغرب عقلاني والمشرق لا عقلاني، وقد صدَّر المشرق للمغرب العربي المشكلات التي يعاني منها وفي طليعتها اللا عقلانية. وأن التجربة الأندلسية المغربية العقلانية بقيت ثلاثة قرون تغالب تيار اللا عقلانية والظلامية الآتي من المشرق. أما العقلانية الرشدية في الأندلس فقد انتقلت إلى أوربا حيث توهج العلم ونشأت حضارة جديدة من تلك البذور المغربية.

ومن الباحثين الذين عنوا بالتراث الدكتور طيب تيزيني، وقد حددموقفه منه بعدم الوقوف أمام التراث موقف المستسلم الذي يقبل كل شيء ولا موقف الرفض الذي يرفض كل شيء ويقطع صلته بالتراث، إذ إنه يرى أن تعدد جوانب التراث العربي هو واقع موضوعي ذو سمات قابلة للتحديد العلمي التراثي، نظراً إلى أن هذا الواقع داخل في معطيات التاريخ بغض النظر عن أنه يدخل أيضاً وعلى نحو تراثي في بنية الحاضر وهذا لا يضعف من موضوعيته.[١٥]

ويرى أن الاختيار من التراث يتجلى في الاستلهام التراثي والتبني التاريخي ويدعو إلى الاستلهام التراثي بآفاقه التقدمية إذ يقول: «إن تبنياً تاريخياً لعناصر تاريخية يقوم على تناولها انطلاقاً من أنها تنطوي على سياق تاريخي علمي معرفي يجعل منها مهيأة للاستمرار ضمن هذا السياق، وعلى ذلك فإن العناصر المتبناة تاريخياً تمثل ضمن ذلك المفهوم موقفاً مطلقاً يشير إلى أن قيمة تلك العناصر ذات مصدر ذاتي، هو المرحلة التاريخية التي نشأت وتبلورت فيها، كما يشير من جهة أخرى إلى أن تبنينا نحن لها من موقع مرحلتنا القومية الناهضة لا يعني أننا نكسبها قيمتها تلك، بقدر ما يعني أننا نجعل منها رديفاً لنا في عملية كفاحنا من أجل التقدم الذي نصبو إليه».[١٦]

وهكذا نجد أن المواقف من التراث تنحو منحى متطرفاً أحياناً، فتدعو إلى استبعاده وعدم

---

(١٥) الدكتور الطيب التيزيني- من التراث إلى الثورة- دار دمشق- ١٩٧٩ ص٧٢٢.

(١٦) المرجع السابق ص٧٤٦.

الاستناد إليه في النهضة العربية المعاصرة، في حين أن ثمة شريحة ترى أنه هو الأساس والمرجع في هذه النهضة. وأما الموقف العقلاني من التراث فهو الذي يرى أن في التراث العربي أموراً قابلة للحياة، وأموراً غير جديرة بالبقاء، وأن نظرة القداسة إلى التراث ليست مقبولة. وفي تقديري هذا هو المنحى الموضوعي، ففي تراثنا كنوز ثمينة يمكن أن نفتخر بها، وأن نوظفها في مسيرة حياتنا الحاضرة وفي توجهنا المستقبلي.

مراجع الفصل

١- الدكتور الطيب التيزيني- من التراث إلى الثورة- دار دمشق ١٩٧٩.

٢- الدكتور زكي نجيب محمود- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت- ١٩٧١.

٣- الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)- تراثنا بين ماض وحاضر- دار المعارف- ١٩٧٠.

٤- الدكتور عبد الإله نبهان- التراث العربي: مفهومه ومواقف المفكرين- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية- دمشق ٢٠٠٩.

٥- الدكتور عز الدين المدني- معالجة التراث واستعماله في الأدب التونسي ـ الحديث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر- وزارة الشؤون الثقافية بتونس- ١٩٧٦.

٦- الدكتور غالي شكري- التراث والثورة- دار الطليعة بيروت- ١٩٨٤.

٧- الدكتور فهمي جدعان- التراث العربي- الشرق الأوسط- العدد ٥٥٢٣ تاريخ ١١/ ٤/ ١٩٩٤.

٨- الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر- وزارة الشؤون الثقافية بتونس ١٩٧٦.

٩- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١.

١٠- الدكتور محمد عابد الجابري- نحن والتراث- دار الطليعة- بيروت ١٩٨٠.

١١- الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة- بيروت ١٩٨٠.

١٢- يوسف محمد رضا- معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة- مكتبة لبنان- ناشرون- بيروت ٢٠٠٦.

الفصل الثاني

التراث العربي سمات ومكانة *

(*) قسم من بحث ألقي في المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٩.

الفصل الثاني

التراث العربي سمات ومكانة

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف أولاً ما يتسم به تراثنا العربي من عراقة وشمولية واعتماد للعقلنة في التفكير والبحث، واعتماد للمنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق والأحكام، والتوازن والتكامل والانفتاح على الثقافات الأخرى، والمناقبية والإنسانية، وأن نبين مكانة هذا التراث على الصعيد العالمي من وجهة نظر مفكرين أجانب اتسموا بالموضوعية، لا من وجهة نظرنا حتى لا يقال إننا متحيزون له.

أولاً- سمات التراث العربي

نبين فيما يلي سمات تراثنا العربي متمثلة في:

١- **العراقة**: يتسم تراث أمتنا العربية بالعراقة، إذ إنه نشأ قبل ألوف السنين على الأرض العربية، وامتد متنامياً عبر الزمان والمكان، معبراً عن ذاته في عدد كبير من الحضارات قبل أن يتحد في النهاية في حضارة عربية إسلامية واحدة ذات ثقافة واحدة شملت الأرض العربية كلها.

لقد قدر للشرق القديم أن يسبق الغرب «اليونان» إلى ابتداع حضارات إنسانية تميزت بالنضج، وكانت تقوم على صناعات وعلوم عملية، وتستند إلى نظر ديني مجرد. ومن دلالات العلوم التي توصل إليها الشرق القديم أن قدماء المصريين كانوا أول من ابتدع الرياضيات واخترع الميكانيكا، وأنشأ المصريون القدماء علم الطب، وكان البابليون والكلدانيون أول من درس أجرام السماء، فقسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، وتنبؤوا بكسوف الشمس وخسوف القمر، وكانت مدرسة الرواقيين الكبرى من مدارس الفلسفة اليونانية شرقية في أصول مبادئها وتفكيرها وفي أساتذتها، وكان رأسها «زينون» من أصل فينيقي، وكان بين أقطابها من ولد في صيدا ومن ولد على ضفاف نهر العاصي أو نهر دجلة، ومعروف ما كان لهذه المدرسة من مكانة في الثقافة اليونانية، وما لها من تأثير في مدرسة الإسكندرية، ومن ثم في عصر النهضة الأوروبية. ومن ذلك على سبيل المثال أيضاً أن اليونان اقتبسوا نظام الأوزان وسك النقود من البابليين،

وكان للآراميين بطون في العراق، وبطون أخرى في سيناء وفلسطين، فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادي النهرين ووادي النيل ومن فلسطين إلى اليونان وغيرها من شعوب البحر الأبيض المتوسط، كما برع اليونان في بناء السفن وفي الملاحة، لكنهم اتبعوا في ذلك الفينيقيين الذين كانوا سابقين في فنون البحار وفنون التجارة، وعملوا على التبادل الحضاري أوسع ما يكون.[1]

أما عن التفكير النظري الديني فقد سبقوا اليونان إلى البحث في الألوهية والبعث والخير والشر، ومنذ أكثر من ثلاثين قرناً توصل «أخناتون» في مصر القديمة إلى وحدانية الإله، واهتدت الزرادشتية الفارسية إلى ثنائية إلهي الخير والشر، وعرف الهنود حلول الله في مخلوقاته.[2]

وتجدر الإشارة إلى أن العرب السوريين القدماء هم الذين اخترعوا الأبجدية وعلموها العالم، إذ نشأت أول أبجدية في التاريخ على شواطئ اللاذقية في أوغاريت، وكانت أول نوتة موسيقية في العالم في أوغاريت أيضاً، وأن أول ألعاب أولمبية في العالم عرفتها عمريت على الشاطئ السوري أيضاً.

ويعد وطننا العربي مهداً للحضارات الإنسانية الأولى وللديانات السماوية والقيم الروحية ظهرت فيه، فدافع عنها، وحافظ على استمرارها، إدراكاً منه لرسالته الإنسانية الكبرى، فهو عريق في الحضارة متهيئ لتلقي المعاني الروحية، تجمعت له في تاريخه فضائل الإنسانية في الإنشاء والتعمير وفضائلها في الوصل بين الأرض والسماء.

ولقد تنزلت الديانات السماوية الكبرى لأهل الكتاب في هذا الوطن دون سواه، وجوهر الدين واحد في هذه الديانات، فقد دعا موسى إلى التوحيد ونبذ الأصنام، ووصف موسى الإله بالرحمة، ولكن بني إسرائيل ظلوا على وصف الإله بالغيرة والبطش والتعطش للدماء.

وفي الديانة المسيحية الطهر كل الطهر في نقاء الضمير، وكانت الرسالة المسيحية في

---

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩ ص٣٩.

(٢) توفيق الطويل- أسس الفلسفة- ط٥- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٧٧ ص٦.

جوهرها تبشيراً بالرحمة والمحبة، وجاء الإسلام دين رحمة وعدالة ومساواة، ولا فضل فيه لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، وأن الجميع سواسية كأسنان المشط، وأن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وتراثنا العربي في عراقته أغنى من أن يحد بمرحلة حضارية واحدة، فمن بابل وآشور، ومن الفراعنة والبابليين وغيرهم من بناة الحضارات القديمة، ومن الديانات السماوية ينحدر إلينا تراث ضخم يعد من أعرق الثقافات في الزمن، وأوسعها امتداداً في المكان، وأكثرها غنى في العطاء القومي والإنساني على السواء.

وهي ثقافة من ثقافات قليلة أخذت الصفة العالمية قبل العصر الحديث سواء في جمعها ثمرات الحضارات التي سبقتها وتمثلتها أو في انتشارها وتجاوب قيمها ومفاهيمها لدى أكثر الشعوب المتحضرة في عهدها.

٢- **الشمولية**: لقد كانت الحضارات القديمة أميل إلى التخصص، فعرفت الحضارة اليونانية بالفلسفة، وعرفت فارس بالآداب ومراسم الحكم، وعرفت الهند بالحكمة، وعرف الرومان بالتشريع والإدارة. أما الحضارة العربية فعرفت بالشمول، إذ إنها أسهمت في ميادين المعرفة المختلفة والمتنوعة في جو من التناغم والتوافق والانسجام. وتمثل إسهام الحضارة العربية في المجال العلمي في ميادين الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والهندسة وعلم التعمية...الخ. كما تمثل إسهامها في المجال الاجتماعي والفكري في ميادين الحكم والإدارة وولاية المظالم والحسبة والوقف وفي ميادين الفلسفة وعلم العمران وفي ميادين اللغة وعلومها...الخ.

ومن ينظر في التراث العربي يجد أنه يشتمل على كثير من الاتجاهات وفي ميادين متعددة، فهناك الجانب الخرافي، وهناك الجانب العقلاني، وهناك الجانب الضاحك والجانب العابس، وهناك جانب الفرق والعقائد، وهناك الاتجاه العابث اللامبالي...الخ.

فإذا كنت تريد أن تحتج بالتراث وتستضيء به على اتجاهك العقلاني فأنت واقع فيه على ما تريد، وإن كنت تريد تأييد مذهب يدعو إلى الحياة والاستمتاع بها فهو يمدك بمئات الشواهد، وإن كنت تريد تأييد مذهب زهدي تقشفي فأنت واقع فيه على مجلدات وقصص وأخبار لا نهاية لها..وإن كنت ممن يؤمن بالغرائبيات وقصص المخلوقات الخفية فإنه يقدم لك زاداً شهياً يفوق ما تريد، وإن كنت تؤيد مذهباً أو فكرة تتشح بالغموض فإنه يمدك بغموض الغموض في نصوص قد لا تجد لها مثيلاً إلا بعد لأيٍ عند أمم أخرى، وقل مثل ذلك عن اتجاهات التشاؤم أو التفاؤل والكرم والبخل والعقل والحمق..الخ.[٣]

كان طبيعياً إذاً أنه عندما اتجه المفكرون العرب إلى محاولة الاستناد إلى التراث في مذاهبهم الحديثة ودعواتهم الاجتماعية أن يلحظوا شمولية هذا التراث وسعته وامتلاءه بكل ما يريد أحدهم أو يريد غيره من النقيض إلى النقيض. لذلك سعى كل اتجاه من هذه الاتجاهات إلى تحديد موقف له من التراث يتفق مع دعوته ومذهبه، فالبحث لم يجر من التراث إلى الحداثة، وإنما كان ثمة مذهب حديث معاصر يبحث له عن أصول في التراث أو عن مؤيدات له، فكان الاتجاه حقيقة من الحداثة إلى التراث لتأييد الحداثة ممثلة بالمذاهب الماركسية والقومية والثورية والإنسانية المعتدلة والمتطرفة والصوفية، وبكل ما هو حاضر على ساحة الحياة.[٤]

ومن مظاهر هذه الشمولية أن الإسلام جاوز الطور الذي كان فيه الدين تعبيراً فردياً عن الإنسان في علاقته بالسماء ليصبح تعبيراً شمولياً عن علاقة الإنسان بالسماء وعلاقته بالأرض ومن عليها وما عليها، إذ إنه لا يكتفي بتنظيم علاقة الإنسان بربه فحسب، بل يسعى إلى تنظيم حياة الأفراد الخاصة ويربطها بحياة المجتمع العامة، ويربط الحياتين معاً

---

(٣) الدكتور عبد الإله نبهان- التراث العربي مفهومه ومواقف المفكرين- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية – دمشق ٢٠٠٩ ص٤.

(٤) المرجع السابق.

بالمثل الإنسانية العليا التي هي تراث البشرية جمعاء، وبذلك تتداخل كل هذه العلاقات وتتشابك بحيث يصبح الواقع صورة للمآل والمثال تعبيراً عن الواقع، وأضحت الحضارة العربية الإسلامية شاملة تجمع كل تراث البشرية الروحي، وتوجهه الحياة لتبني الفرد المؤمن بربه، المتعاطف مع أخيه الإنسان، العامل لخير نفسه وخير مواطنيه ومجتمعه وخير الإنسانية جمعاء.[٥]

وتجدر الإشارة إلى أن هذه السمة، سمة الشمولية، لم تكن لتشمل الحركة الفكرية فقط، وإنما تجاوزت ذلك إلى غنى تلك الحركة وعمقها عمقاً يستأثر بالفكر والوجدان، ويشهد على هذا الغنى ضخامة ما بقي من تراثها على الرغم مما أصابه من التبدد والضياع والنهب والسرقة والإبعاد والتعتيم...

٣- **العقلنة**: جاء الدين الإسلامي معبراً عن النقلة الحضارية الكبيرة القائمة على سيادة العقل البشري وتحكيمه في كل ما يتعلق بحياة الناس، ولم يستند في إقناع الناس إلى معجزة أو خارقة، وإنما استند إلى الدليل والبرهان العقلي، وكان تحديه للناس عقلياً.

ولعل روح الحضارة الإسلامية يكمن إلى جانب إيمانها القوي بالله في إيمانها العظيم بالإنسان وبعقل الإنسان وقدرته غير المحدودة على التفكر والتفكير، ومن هنا كثرت الإشارات إلى التفكير والتفكر في القرآن الكريم، والتفكير لا يستقيم معه التقليد المطلق وقفل باب الاجتهاد[٦]، ولكن يستقيم معه إعمال العقل والتفكير والتدبر في نظام هذا الكون، وإلى الأمانة العلمية في الملاحظة انطلاقاً من قوله تعالى «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً».

ودعا الإسلام إلى الابتعاد عن الكهانة والوهم والإيهام والخوارق، وحال دون منع العقل من الانطلاق احتراماً له، واكبر هذه الموانع العرف الذي يوصف بعبادة السلف والاقتداء الأعمى

---

(٥) الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- دار الجيل- بيروت ١٩٨٩ ص٨٥.

(٦) المرجع السابق ص٨٤.

بالسلطة الدينية، والخوف المهين من أصحاب السلطة الدنيوية، إذ لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، ولا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل والدين، ولا يقبل منه أن يلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء.

ومن مظاهر العقلنة النقد الموضوعي للآراء، إذ اعتمد هذا النقد في الحكم على آراء الفلاسفة اليونانيين على يد ابن سينا والغزالي والكندي والفارابي وابن رشد الذي يعد من أعظم فلاسفة الإسلام، إذ إنه شرح فلسفة أرسطو حتى وصفه الأوربيون بالشارح، وتعدى الشرح والتفسير إلى التعديل والتصحيح، واقتبس الغرب فلسفة ابن رشد، ومن حسناتها أنها أطلقت بينهم مجال البحث والمناقشة وحرية الرأي والتفكير.

وإذا كانت الفلسفة الإسلامية قد اتصلت بالفلسفة اليونانية خاصة فإنها وقفت منها موقف الناقد وموقف الشارح معاً، فضلاً عن تجاوزها ذلك إلى الإبداع والابتكار، وها هو ذا الرازي يقول: «إن علينا ألا نأخذ ما نجده عند الآخرين على أنه حقائق، علينا أن نضع كل ما نقرأه على محك العقل، والعقل هو الذي يقبله أو لا يقبله».

وتجدر الإشارة إلى أن التعميم لا يجوز فيما يتعلق بسمة العقلنة في التراث العربي، فقد كانت هناك حالات في حنايا الحركة الفكرية ذاتها سادت فيها اللاعقلانية، وتغلبت الأهواء، وضلت العقول على النحو الذي نلاحظه حالياً في الحضارة الأوربية التي توصف بالعلمية، ولكن فيها نماذج صارخة تنأى عن العلمية، وتستسلم للأهواء، ومن بينها النزعات اللا إنسانية كالعنصرية والاستعلاء..

٤- **اعتماد المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق**: اتبع العرب في العلوم الطبيعية وفي جوانبها التطبيقية كالطب والصيدلة منهجية علمية راقية تقوم على خمس دعائم:[٧]

أ- نفي الخرافات.

ب- سعة الاطلاع.

---

(٧) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص٥٣.

ج- الرحلات للبحث والتنقيب.

د- التجارب.

هـ- الموازنة.

فقد عنوا بالكيمياء، وكان من أبرز من نحا هذا المنحى جابر بن حيان، ومن أقواله المأثورة «إن علماء الطبيعة لا يفرحون بغزارة المادة، ولكنهم يبتهجون بمهارة طرائقهم في التجارب»، وللبيروني فضل السبق إلى دراسة السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال، وابن البيطار في النبات، وحنين ابن اسحاق في التشريح، وابن الهيثم في اكتشاف المجهر وفي البصريات، وهو أول من قام بتشريح العين ودراسة أجزائها، وله فيها رسائل معروفة في أوربا، كما أن له نظرية في النور والإضاءة.

ولقد شدّد ابن الهيثم على نزاهة الباحث العلمي وضرورة تخلصه من سلطة الآراء الموروثة والابتعاد عن التعصب والتزام الموضوعية العلمية، وأن تكون الحقيقة هي هدفه الوحيد للعمل، إذ يقول في مقدمة كتاب «الشكوك على بطليموس»: «الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات، وحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس، واعتمد الشك المنهجي في الوصول إلى الحقيقة فيقول: «إني لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً في عقائد الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككاً في جميعه».[٨]

وهذه الصفات كافة هي التي جعلته يتبع المنهج العلمي في بحوثه خاصة في علم الضوء، فبعد أن قام بالتشكيك والبحث عن الحقائق كتب يقول: «رأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية»، فنراه هنا يحدد أن طريق الصواب

---

(٨) الدكتور سامي شلهوب- التراث العلمي العربي قديماً وحديثاً- معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب- آذار ٢٠٠٧ ص١.

يستدل عليه من التجربة والبحوث المدعومة بالشواهد العيانية والمحاكمة العقلية. ومن السمات التي ركز عليها في بحوثه وكتبه: [٩]

أ- **الفضول العلمي**: ميله إلى البحث والاستقصاء من أجل الكشف عن الكثير من أسرار الطبيعة ونواميسها لأجل الحقيقة ذاتها.

ب- **الإيمان بوحدة الحقيقة**: الحقيقة واحدة عنده والاختلاف حولها هو نتيجة تعدد الطرق المتبعة للوصول إليها.

ج- **الشك المنهجي**: الشك عنده هو وسيلة لبلوغ الحقيقة لا إنكارها، والغاية هي التثبت من الشيء قبل التسليم به، فهو لا يسلم برأي قبل الاقتناع بصوابه بالتجربة والمشاهدة حتى لو كان هناك إجماع عليه من العلماء والناس، فلم تمنعه شهرة بطليموس في البصريات من رفض نظرياته في الرؤية والإبصار.

د- **الواقعية**: يرفض رفضاً قاطعاً تعديل الظواهر الطبيعية بأسباب غيبية وخيالية، فهو يرفض تفسيره لكيفية الرؤية والأخطاء والأوهام البصرية.

هـ- **التجرد والموضوعية**: فهو يطلب الحق لذاته بمعزل عن الهوى والعقائد الموروثة.

و- **اعتماده على المراقبة الحسية في تعليل الظواهر الطبيعية**: فهو يراقب الظواهر الطبيعية للكشف عن أسرارها والإحاطة بقوانينها كمراقبته للضوء قبل التحدث عن الانعكاس والانعطاف.

ز- **اللجوء إلى التجربة والاختبار**: عندما لا يجد الظاهرة الطبيعية التي يود دراستها كان يلجأ إلى إحداث ظاهرة اصطناعية مشابهة لها، مثال تجاربه على الضوء من خلال ثقب في غرفة مظلمة ملأى بالغبار أو خالية منه، للدلالة على أن الأشعة تنطلق بخطوط مستقيمة ولبيان أثر ضيق الثقب واتساعه في انتشار الأشعة.

ح- **القياس العقلي**: فينطلق من حكم خاص يصبح يقيناً لاشتمال الحكم العام عليه، فنراه يتدرج في بحوثه من المقدمات إلى النتائج متبعاً طريق القياس العقلي في الربط بينهما.

---

(٩) المرجع السابق ص٢.

ط- **الاستقراء**: فينطلق من أحكام خاصة على وقائع جزئية متماثلة واستخراج الأحكام العامة التي تشملها، ومعيار الصواب فيه هو مطابقة النتائج للواقع.

ي- **المقابلة والتمثيل**: فقاس النظير بالنظير من أجل استخلاص المماثلة الكلية أو الجزئية وإدراك بدهيات العلوم بهذا الموضوع من القياس.

ك- **الاستنتاج والاستنباط**: فلجأ إلى تفريع الأحوال المفردة عن القاعدة العامة، فأثبت مثلاً قانون الانعكاس العام، ثم اتخذه أصلاً لشرح إدراك الصور و المبصرات بالانعكاس.

وعني العرب بالجراحة والتشريح، ووصفوا بعض الآلات لأغراضها، وأشار ابن الطفيل في رسالة حي بن يقظان إلى تجارب في تشريح الحيوانات تدل على فهم وممارسة، واشتهر آل زهر في الأندلس بالطب وتوارثوه ابناً عن أب، وبرع العرب في الصيدلة، وراعوا التناسب بين المواد في تركيب الأدوية.

ولقد انعكست تقاليد العرب في الطب في الناحية العملية في طرائق التعليم الطبي السريري القائمة على مشاهدة المرضى والاستماع بدقة إلى شكواهم، واستقصاء أحوالهم، وزيارة منازلهم، ومن وسائل ذلك المرور على أسرة المرضى في البيمارستانات حيث كان شيوخ الأطباء يصطحبون تلاميذهم، ويفسرون لهم أحوال المرضى، ويشيرون عليهم بالعلاج، وهي وسيلة التعليم الطبي السليم القائم على المشاهدة والمعاينة والتجربة، وليس نقلاً عن الكتب والمخطوطات، ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن الجاحظ في تراثنا العربي الإسلامي كان مولعاً بإجراء التجارب على الحيوانات مع أنه عاش في بيئة تعنى بالحفظ وتعلي من قدر الحفاظ.

٥- **التوازن والتكامل**: وتجلى ذلك بين الفكر والعمل والإرادة والمسؤولية والدنيا والآخرة والمادة والروح، والنظر والعمل، وبين جميع جوانب الشخصية الإنسانية فكراً ونزوعاً وأداءً، فلا إفراط ولا تفريط، ولا جعل اليد مغلولة إلى العنق، ولا بسطها كل البسط.

وإذا كان الإسلام خاتمة رسالات السماء فإنه عقيدة شاملة متكاملة بلغت أعلى منزلة في التوحيد والتنزيه للإله، وميزت الإنسان بالتفضيل معوّلة على عقله وضميره وسعيه إلى

طلب الكمال، وأقامت المجتمع على أساس من العدل والحق، كما أقامت الإنسانية على أساس من المساواة والإخاء.

٦- **الانفتاح على الثقافات الأخرى**: وهو انفتاح مستمد من عراقة الحضارة في الوطن العربي وموقعه وسطاً بين الحضارات القديمة، ومستمد أيضاً من أصول العقيدة الإسلامية ودعوتها الإنسانية في منأى عن العنصرية، فوسع المسلمون عبر تاريخهم الأديان الأخرى، وعاشوا بأمان وسلام ومودة وتفاهم مع المسيحية واليهودية والصابئة وسواها من العقائد التي لم يحاربها أحد في الدولة الإسلامية على مر العصور، لأن شعار الإسلام «لا إكراه في الدين: سورة البقرة ١٥٦». ولأن خطابه حتى للكافرين «لكم دينكم ولي دين: سورة الكافرون ٦».

واحترم العرب الثقافات الأخرى، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية ..الخ، وكانت الكلمات النبوية القائلة «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها» هي الهادي للعرب المسلمين الفاتحين، فهم لم يدمروا حضارات البلاد التي فتحوها، ولم يقفوا منها موقف الرفض أو العداء، بل لقد تتلمذوا عليها، واحترموا علماءها ومفكريها، واستلهموا ما هو صالح من قيمها وأصولها وقسماتها مما لا يتعارض مع الروح العربية الإسلامية، ثم صنعوا مع شعوب هذه البلدان ذلك المزيج الحضاري الجديد الذي يتكون من فكر الإسلام الشاب والنقي، وروح العروبة المتوثبة، والمواريث الحضارية الصالحة في البلاد التي فتحوها، وهو المزيج الذي تبلور في الحضارة العربية الإسلامية.[١٠]

أما حركة الترجمة التي نهض بها العرب عن الفارسية والهندية واليونانية وغيرها، فكانت ثمة بواعث جديدة وراءها. ومن هذه البواعث:[١١]

---

(١٠) الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٤ ص١١٧ .

(١١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص٤٩ .

أ- المواقف الإنسانية والعقلانية التي اعتمدها الإسلام من حيث خلاصه من النزعات العنصرية، واعتماده على العقل والتفكير.

ب- حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم، يخصون منها ما كان ذا نفع في حياتهم الواقعية كالطب والحساب والفلك...الخ.

ج- تطور المجتمع العربي واتساع اتصاله بالشعوب الأخرى سواء من دخلت في الإسلام أو بقيت على عقائدها، واستقرت في الأمصار، وما تولد عن هذا الاتصال من تبادل الثقافات على أنه مظهر من مظاهر الحضارة.

د- اهتمام بعض الخلفاء برعاية العلم والعلماء وحسن مكافأتهم لهم.

٧- **المناقبية والإنسانية**: إن جوهر أمتنا يقوم على الانفتاح الحضاري الإنساني، من أرضها قامت الفتوحات، وعبرها مرت، كما أنها تعرضت لمحن واجتياحات، ومع ذلك كله بقيت تقدم للعالم أنموذجاً اجتماعياً إنسانياً يؤكد انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان، وظلت تحمل راية الحياة المعطاء، راية الأخوة الإنسانية، فبعد أن اخترعت الأبجدية وقدمتها للعالم، وبعد أن شقت البحار ناشرة الثقافة، وبعد أن نشأت في رباها أول الشرائع بدءاً بشريعة حمورابي وانتهاءً بشرائع السماء، لا نستغرب ما قيل من أن لكل إنسان في العالم وطنين: أحدهما مسقط رأسه، وثانيهما مسقط روحه وجوهره الإنساني وهو بيئة أمتنا.

وليس عجيباً أن تكون الرسالات السماوية التي أسهمت في السمو بالإنسان إلى ذرا الإنسانية السمحة قد وجدت في هذه البيئة الأرض الخصبة لنموها وانتشارها في العالم، لأنها في توقها الإنساني التوحيدي لامست روح هذه الأمة، روح هذا الوجود الحضاري، فوجد فيها تعبيراً عن أشواقه ومثله ونزعته الإنسانية، فحملها وبشر بها العالم.[١٢]

---

(١٢) الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق ١٩٩٢ ص١٠.

وإذا كان من سمات الحضارة العربية الإسلامية تحقيق العدالة والمساواة والجهر بالرأي والتمسك بالحق وإشاعة الأمن والسلام والاستقرار والنزعة الإنسانية في ذلك كله فإن ذلك لم يكن للمسلمين فقط، بل لغيرهم من الديانات الأخرى، إذ لم تكن الوظائف تعطى إلا للمستحق الكفي بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، ويقول «مارك سايس» في وصف الإمبراطورية العربية الإسلامية في عهد الرشيد: «وكان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة».[١٣]

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، فقد كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم ودياناتهم، قال خلف بن المثنى: «لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق شعوي)، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي)، وبشار بن برد (وهو شعوبي)، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحرَّاني الشاعر (وهو صابئي)، وكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم».[١٤]

ويمكننا أن نتصور نبل الغايات وسمو الأهداف الإنسانية التي اختطها محمد ﷺ لأصحابه من خلال وصية لهم في غزوة مؤتة إذ قال: «أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا (الغلول: السرقة)، ولا

---

(١٣) الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- المكتب الإعلامي- دمشق ١٩٧٧ ص٩٢ .

(١٤) المرجع السابق .

تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً في صومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً.[١٥]

ولقد تجاوزت التربية العربية الإسلامية في إنسانيتها حدود الإنسان إلى الحيوان، إذ إنها مضرب المثل في الرفق بالحيوان والرحمة به.[١٦]

ولم يكن ازدهار الثقافة العربية بجانبيها في الدراسات الإنسانية والعلمية إلا نتيجة التزام منهجية سليمة تصدر أصلاً عن مصدرين أولهما المصدر العقلاني بالتعويل على العقل والتفكير، وثانيهما المصدر الأخلاقي الإنساني بتأكيد مسؤولية الإنسان وتعويله على ضميره وأخلاقه وإنسانيته في عمله وأدائه.

وتجدر الإشارة إلى أن لكل قاعدة استثناء، إذ لم تكن تلك السمات التي سبقت الإشارة إليها في معرض الحديث عن خصائص تراثنا العربي إلا في الأعم الأغلب، وقد تكون ثمة استثناءات هنا أو هناك، وهذا ما يدفع بنا إلى وقفة مستأنية ونظرة معاصرة ورؤية جديدة لتراثنا.

وقبل أن نقف هذه الوقفة المستأنية يحسن بنا أن نأخذ فكرة ولو موجزة عن وضع تراثنا في عيون الأجانب، وهذا ما سنتناوله في الصفحات التالية.

---

(١٥) سنن النسائي ٨٧٦٧ .

(١٦) الدكتور محمود أحمد السيّد- بعض السمات البارزة للتربية العربية الإسلامية- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠١ ص٥٠.

ثانياً- التراث العربي في رؤى أجنبية

ثمة من رأى من الأوربيين أن الحضارة العربية الإسلامية اقتصرت على النقل دون الأصالة، وعلى التقليد والمحاكاة دون الابتكار والإبداع، وهذه دعوة عنصرية مردودة، وحسب الحضارة العربية أن تراث الحضارات القديمة لم ينقطع على يديها، إذ إنها حفظت للإنسانية تراثها، وزادت عليه، ونقلته إلى من تلاها.

وتجاهل معظم مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين شهادات علماء الإغريق وأطبائهم بأنهم تعلموا الكثير من مصر القديمة، وظلوا على زعمهم بأن الطب بدأ في اليونان، وأن الأدوية جاءت على أيديهم، على الرغم مما قاله الإغريق أنفسهم «إن مصر معين للأدوية لا ينضب»، وعلى الرغم من أن ديوسقوريدوس جمع معلوماته عن الأدوية من الشرق.

وأنكر أصحاب هذا الزعم أن يكون عصر النهضة استمراراً للعلم العربي، وإنما رأوا أنه استمرار للإغريق، متجاهلين أن عصر الظلام عندهم على مدى العصر الوسيط كله كان موازياً لعصر النور في العالم العربي الإسلامي، وأن هذا العصر استمر من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وأن صقلية والأندلس وجنوب إيطاليا في هذه القرون كانت تتعلم من العالم الإسلامي، تنقل عنه، وتترجم مؤلفاته.

وشهد القرن العشرون نشاط عدد من العلماء بحثوا عن الحقيقة، فتبين لهم أن هذه الأحكام التي أصدرها مؤرخو الطب الأوربيون كانت بعيدة عن الإنصاف ومجانبة للصواب، فقالوا إن ما يسميه المؤرخون الأوربيون «عصر النهضة» إنما هو استمرار للعصر الإسلامي في أوربا، وأن التراث الإغريقي الذي عرفته أوربا إنما هو التراث الإغريقي المكتوب بالعربية، بفضل جهود علماء من العالم الإسلامي حفظوا هذا التراث الإغريقي، وأضافوا إليه، وأغنوه، وأعادوا تبويبه، وصنفوه ونقلوه إلى أوربا، وأن تراث الإغريق عند العرب كان محفوظاً إما مترجماً أو مشروحاً أو ملخصاً، ونقل العرب تراثهم وتراث الإغريق ليس إلى أوربا فقط، بل إلى الأمم المجاورة، إلى إفريقيا والهند وأواسط آسيا حتى حدود الصين وإلى أرمينيا والقوقاس والبلقان والمحيط الهندي، وأن الإغريق

يشكلون حلقة متوسطة في تاريخ العلم الذي يبدأ قبلهم بكثير، وهي حلقة في وسط السلسلة وليس في أولها.[١٧]

وما أكثر الكلمات التي كان يظنها بعضهم يوتانية فإذا نحن نقع على جذرها الأصيل في التراث الكنعاني الأوغاريتي، أو في غير ذلك من اللهجات الكنعانية، وكان للكنعانيين صلات بآسيا الصغرى وجزر بحر إيجة وقبرص، وهي نقاط اتصال واحتكاك مع العالم اليوناني قبل حرب طروادة.[١٨]

وكم من مرة أيضاً سمعنا بعضهم يقول إن التخطيط الشطرنجي في بناء المدن هو إبداع يوناني، وما زال بعضهم يقرره في جامعاتنا العربية (كليات هندسة العمارة وعلم الآثار»، وغاب عن بالهم تخطيط المدن في وادي النيل وبلاد الرافدين قبل هيبوداموس بقرون وقرون.[١٩]

وقبل الفلسفة اليونانية كان تراث الشرق من الحكمة المصرية القديمة وملحمة جلجامش وسر الوجود والموت والبعث والخلود وفلسفات الهند والصين...الخ.

ولقد حاول بعض المستشرقين أن يطمس تاريخ العرب الحضاري في إشارتهم إلى أن العرب كانوا نقلة ومترجمين عن جالينوس وأبقراط، وأن الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس، وليس فيه جهد إبداعي أي بمعنى أن العرب كانوا وسطاء، ولم يكن عندهم روح الإنتاج الجديد والتأليف، وهذا افتراء تكذبه في الطب مثلاً مخطوطات الرازي وما جاء فيها من تصويبات كثيرة لأبقراط وجالينوس، كما تكذبه إبداعات ابن الهيثم في البصريات، وقد ظلت أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعتمد في طبها إلا على مخطوطات ابن سينا والرازي

---

(١٧) الدكتور نشأت حمارنة- مكانة العرب في تطور الطب- المؤتمر السنوي الثاني لمجمع اللغة العربية بدمشق- تشرين الثاني ٢٠٠٩ ص٣ .

(١٨) الدكتور محمد محفل- دور الحضارات القديمة في التراث العربي قبل الإسلام وبعده- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق- تشرين الثاني ٢٠٠٩ ص٧ .

(١٩) المرجع السابق ص٨.

والزهراوي وابن النفيس، وما زالت أوربا تسمي بعض المركبات الكيميائية بأسمائها العربية كالكحول والشراب وغيرها من مجالات متنوعة كالسمت والنظير والجبر والخوارزمي والصفر...الخ.

لقد بنى العرب هياكل علومهم الطبية عن الطب الإغريقي، فأخذوا كثيراً عن جالينوس وجعلوه أستاذهم، وألموا ببعض الطب الفارسي والهندي، ولكنهم كيفوا الطب حسب حاجاتهم، وأضافوا إليه كثيراً فأغنوه وتوسعوا به، واتبعوا طرقهم الخاصة وأساليبهم العلمية الرصينة، وقاموا بالبحوث العلمية. وانطلاقاً من أمانتهم العلمية نسبوا إلى الإغريق كل ما ترجموه عنهم وأخذوه منهم، وهم الذين أغنوا التراث الإغريقي وخلدوه، ونشروا علومهم وثقافاتهم التي كانت هي الأساس القوي للنهضة العلمية في أوربا، إلا أن نفراً من علماء الغرب لم يكونوا مثلهم ملتزمين بالأمانة العلمية، فأنكر كثير منهم على العرب فتوحهم الطبية، بل حاول كثير منهم التعتيم على الحضارة العربية الإسلامية بعد أن نهلوا من معينها، حيث وجد كثير من الكتب الهامة التي ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأخرى لا تحمل اسم المؤلف الأصلي، وكان يحذف هذا الاسم من غير ذكر لجنسيته أو دينه، فكتب الجراح أبي القاسم الزهراوي وأبي بكر الرازي المترجمة كانت تحمل أسماء غير أسماء مؤلفيها الأصليين، ولكن الأمناء المنصفين من الكتاب الأوربيين الغربيين كانوا يتحرون الحقيقة، ويذكرون الأثر الكبير والمضيء الذي تركه العرب في تقدم الطب والعلوم الأخرى، فها هو ذا «جورج سارتون» يؤرخ للعلوم فيسمي كل عصر من العصور التي اختارها باسم المبدعين فيه، فيرى أن الحقبة الممتدة من ٤٥٠ إلى ٤٠٠ ق.م هي عصر أفلاطون، ثم يليه عصر أرسطو فأقليدس فأرخميدس. أما الحقبة الممتدة بين ٦٠٠ و٧٠٠ للميلاد فهي عصر الصينيين، والمدة الواقعة بين ٧٥٠ و١١٠٠ للميلاد وهي عصر العلماء العرب الذين تعاقبوا في سلسلة موصولة، وكان منهم جابر بن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي والبيروني وابن سينا وابن الهيثم. وبعد هذه الحقبة البالغة ٣٥٠ عاماً أي بعد ١١٠٠م تبرز أسماء من الأوربيين يتقاسم معهم العرب القيادة العلمية في مدى ٢٥٠ عاماً. وتجد في هذه الحقبة من الأسماء العربية

ابن رشد والطوسي وابن النفيس، إلى جانب جيرار وكريمونا ورود بيكون. ولم تقتصر الصلة على العلوم وحدها بل شملت مجالات الفكر والأدب كلها.[٢٠]

ولقد أشاد العلماء بعبقرية ابن الهيثم في التراث العلمي العربي، وسادت آراؤه بين علماء الغرب والشرق على السواء، فظهرت أفكاره في أبحاث واتيلو ١٢٧٠م الذي وضع رسالة اعتمد فيها على كتب ابن الهيثم، وظهرت آراؤه جلية عند روجر بيكون التجريبي ١٢٩٤م الذي كان يعجب من الذين يريدون البحث في الفلسفة دون معرفة العربية، واستمد العالم كيبلر ١٦٣٠م معلوماته من كتاب المناظر لابن الهيثم، وهذا ما دفع جورج سارتون إلى اعتبار «ابن الهيثم أعظم علماء الطبيعة والبصريات لعدة قرون، واعتبار «البتاني» من أعظم علماء عصره وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات، لا بل من عباقرة علم الفلك في العالم ومن عباقرة علمي الجبر وحساب المثلثات، ومن الذين أسدوا خدمات جليلة لتطور العلوم الرياضية عبر التاريخ البشري، إذ إنه اشتهر برصده للكواكب والأجرام السماوية على الرغم من بدائية الآلات التي استخدمها، فقد توصل إلى نتائج مذهلة ما زالت محط إعجاب العلماء ودهشتهم، وبقيت جداوله الرياضية وبراهينه الهندسية من أهم المراجع حتى بداية القرن الثامن عشر فاعتبره كل من «كاجوري» و«هاليه» من أعظم علماء الرصد، وسماه بعض الباحثين «بطليموس العرب»، وقال العالم الفرنسي الشهير «لالاند»: إن البتاني من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله. ويؤكد التاريخ أن البتاني من الذين أسهموا في وضع أسس علم المثلثات الحديثة، وعملوا على توسيع فهمها، وأوجد قيم الزوايا بطرائق جبرية تبرهن على خصوبة قريحته وفهمه الواسع لبحوث الهندسة والجبر والمثلثات.[٢١]

---

(٢٠) الدكتور محي الدين صابر- قضايا الثقافة العربية المعاصرة- الدار العربية للكتاب- تونس ١٩٨٣ ص١٧٣ .

(٢١) الدكتور سامي شلهوب- التراث العلمي العربي قديماً وحديثاً- معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب- آذار ٢٠٠٧ ص٣.

لقد تأثر شعر التروبادور والبروفانسيين بابن قزمان، كما تأثر قصاصون ألمان كثيرون بالعرب، وكان لقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وقصة السندباد أثرها وسحرها في مخيلة الأدباء الأسبان أمثال بدرو ألفونسو، واستلهم Daniel Defo في قصة «روبنسون كروزو» قصة حي بن يقظان لابن الطفيل. أما الكوميديا الإلهية للشاعر الكبير «دانتي» التي يروي فيها رحلته إلى السماء والجحيم فإن فيها أثراً من قصة الإسراء والمعراج، أو أثراً من رسالة الغفران للمعري، أو من المتصوف المشهور ابن عربي كما قال آخرون.

وماذا نقول عن دور ابن ماجد في الكشوفات الجغرافية بالتعاون مع أبناء الغرب، ودور الشريف الإدريسي الذي استأثر بإعجاب المؤرخين العرب والأوربيين، والذي نحت على لوحة من الفضة خريطة العالم لملك صقلية النورماندي؟

وليس من يذكر مفكر المسيحية الكبير «توما الأكويني» إلا ويقرنه بالفيلسوف العربي المسلم ابن رشد، وهذا إلى جانب الإنتاج العربي في مجالات التربية والاجتماع مثل القابسي- وابن خلدون. وثمة من يربط بين نظرية الجشتالت وظهور كتاب «الزرنوخي» المتوفى عام ٥٩١هـ في التربية إلى اللغة الألمانية. (٢٢)

وعندما أفاق الغربيون من سباتهم، وأرادوا أن يحذوا حذو العرب ويقلدوهم وينقلوا علومهم ومعارفهم وجدوا أنفسهم لما طفقوا ينهضون عاجزين عن محاكاة العرب وبلوغ شأوهم في العلوم والكتابة والبيان، فها هوذا شاعر إيطاليا الكبير «بيترارك» في القرن الرابع عشر الميلادي يندد ببني قومه، ويستنهض هممهم، ويهيب بهم، ويبث في أنفسهم العزيمة والثقة قائلاً: ماذا؟ لقد استطاع «شيشرون» أن يكون خطيباً بعد ديموستين، واستطاع «فيرجيل» أن يكون شاعراً بعد «هوميروس»، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتابة ! لقد جارينا اليونان غالباً، وتجاوزناهم

---

(٢٢) الدكتور محي الدين صابر- قضايا الثقافة العربية المعاصرة- مرجع سابق ص١٧٤.

أحياناً، وبذلك جارينا وتجاوزنا غالبية الأمم، وتقولون: إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب، يا للجنون! ويا للخُبال! بل يا لعبقرية إيطاليا الغافية أو المنطفئة.[٢٣]

ويقول الكاتب الإسباني القديم «ألفارو Alvaro» في القرن التاسع الميلادي:

«إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي، فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، ولقد ساء ذلك بعض كبار الأسبان فقال: «إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح» فأين اليوم من رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء، واأسفاه!

إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أو لغة غير الأدب العربي، ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، في حين هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات، فيا للأسى! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلا تكاد تجد منهم اليوم واحداً في كل ألف يكتسبها خطاباً إلى صديق! أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير فيها على أحسن أسلوب! ».[٢٤]

وقال «ويلز» عن حضارة العرب: «وكانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الإبهام، فهذه الخاصة التي جاءتنا بطريق العرب، ولم تهبط على أهل العصر الحاضر بطريق اللاتين».

وقال «فلوريان»: كان للعرب عصر مجيد عُرفوا فيه بانكبابهم على الدرس، وسعيهم في ترقية العلم والفن، ولا نبالغ إذا قلنا إن أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التي

---

(٢٣) الدكتور عبد الكريم اليافي- دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية- تونس ١٩٨٤ ص٨٥.

(٢٤) المرجع السابق ص٨٧.

كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

وقال العالم الفرنسي الكبير «سيديو»: إن إنتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوربا.

ويقول المستشرق السوفييتي «كراتشكوفسكي» في مدخل كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» : إن المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في عصرنا، هذا وقد وضح بجلاء في الخمسين سنة الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لأنفسها طرقاً ومسالك جديدة في العصور الوسطى، وما زالت حية إلى أيامنا هذه، أعني علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا. أما فيما يتعلق بالأدب العالمي فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءاً أساسياً من التراث العام للبشرية، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد من المصنفات والفنون الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية». [٢٥]

وتقول «زيغريد هونكة» في كتابها النفيس «شمس العرب تسطع على الغرب» : دب في الطب الغربي فجأة في القرن السادس عشر شعور غريب بالخجل من تقليده للطب العربي، وبقي قروناً طويلة من الزمن نسخة ممسوخة عنه، وكانت معظم المخطوطات الأوربية الطبية في أول عصر الترجمة وحتى القرن السابع عشر تقليداً للعرب ونقلاً عنهم، وقبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي». [٢٦]

وذكر المؤرخ الكبير «جرمان مونبلية»: «أننا نشهد للكتّاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بمزية الإيضاح التام والطريقة التعليمية».

---

(٢٥) المرجع السابق ص٩٢.

(٢٦) الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا الثقافة- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢ ص٢٥.

كما قال الأستاذ «فورغ» الذي لمع اسمه في بداية القرن العشرين لا في فرنسا فحسب، بل في العالم العربي كله، وذلك في خطاب تذكاري ألقاه في إحدى الجامعات الأسبانية: «إن إسبانيا أرض قائمة بنفسها، يتحلى أهلها بسرعة الفكر والاستعداد للنضال، الأمر الذي يجعل هذه الأمة فريدة في بابها، ويرجع ذلك إلى وجود العرب في إسبانيا، واختلاطهم بشعبها اختلاطاً دموياً أدى إلى السير بأوربا في مضمار التقدم، مما دعا «ليبري» إلى القول: «احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوربا عدة قرون».[٢٧]

وقال الملك الإسباني «خوان كارلوس» في حفل افتتاح المركز الإسلامي بمدريد: «إن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس تشكل شطراً من تاريخ بلادنا، ذلك التاريخ المشترك الذي قدم إلى العالم وخلال قرون ثمانية عدداً كبيراً من الشخصيات اللامعة في تاريخ البشرية بأبعاده الواسعة»، ويتابع قائلاً: «إن إسبانيا تشعر اليوم بالفخار بماضيها الذي تقاسمته مع الشعب العربي العظيم وبمساهمات رجاله في التقدم الثقافي والعلمي للبشرية».[٢٨]

ونخلص من هذه الأقوال كافة إلى أن ثمة ثلاثة اتجاهات تبرز تجاه النظرة إلى التراث العلمي العربي، **أولها** اتجاه تمجيدي يرى فيه الأساس والدعامة اللذين لولاهما لما كانت الحضارة العلمية الغربية الحديثة، و**ثانيها** يرى فيه مادة قد جمعت تجميعاً من المصادر الأعجمية المترجمة إبان حركة الإنشاء العلمية العربية في قرون الإسلام الأولى، وينزع أصحاب هذا الاتجاه عن العرب فضل السبق والإضافة في كثير من مجالات العلم، و**ثالثها** لا يعني أصحابه من شأن التراث العلمي العربي تمجيداً أو غير تمجيد لأنه لا يعدو في نظرهم أن يكون حديثاً من أحاديث الماضي الذي انطوت صفحاته.

والحق أن أصحاب هذه الاتجاهات الثلاثة قد ركنوا إلى الشطط ولم ينجوا من آثار الهوى،

---

(٢٧) الدكتور عبد اللطيف ياسين- فضل الأطباء العرب على أوربا في القرون الوسطى- جريدة تشرين السورية- العدد ٥٨٤٤ تاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٩٤ ص٦.

(٢٨) الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا الثقافة- مرجع سابق ص٢٦.

فلا شك أن المغالاة في التمجيد هي من باب المواقف العاطفية التي قد تؤدي في بعض مظاهرها إلى ضرب من التوفيق العلمي الذي يضر بالماضي وبالحاضر وبالمستقبل على السواء، كما أن القول بخلو التراث العلمي العربي من عناصر الجدية والابتكار موقف ظالم متجن قائم على جهل صريح بصلات التأثر والتأثير بين الثقافة العلمية العربية والثقافات الأخرى، كما أن النظر إلى التراث العلمي العربي على أنه مجرد صفحة من الماضي فيه من التجني على الحقبة العلمية العربية التي استغرقت من تاريخ البشرية في مدار تطورها ستة قرون على الأقل.[٢٩]

وإذا كنا نشير إلى رؤية نفر من الأجانب في تراثنا العربي فإن ذلك لا يعني أن نجتر الماضي ونقف عنده دون أن نقدم شيئاً لمعالجة حاضرنا وتوجهنا المستقبلي، وإنما يعني أن يكون ذلك حافزاً لنا إلى الأمام، وأن يكون المجد العلمي للآباء دافعاً لنا إلى دروب الإبداع والابتكار لنحذو حذوهم وننسج على منوالهم، ولله در الشاعر الرصافي إذ يقول:

تقدم أيها العربي شوطاً فإن أمامك العيش الرغيدا
وأسس من بنائك كل مجد طريف واترك المجد التليدا
فشرُّ العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخيرُ الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسباً جديدا

تلك هي باقة من الأقوال بعضها سلبي، وبعضها إيجابي، صرّح بها نفر من الأجانب بخصوص تراثنا العربي الإسلامي، وعلينا نحن –أبناء هذا التراث– أن نعيد النظر فيه وفق نظرة معاصرة جديدة. وهذا ما سنتناوله في الفصل التالي.

---

(٢٩) الدكتور سامي شلهوب– التراث العلمي العربي قديماً وحديثاً– معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب– آذار ٢٠٠٧ ص٢ .

مراجع الفصل

١- توفيق الطويل- أسس الفلسفة- ط٥- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٧٧.

٢- الدكتور سامي شلهوب- التراث العلمي العربي قديماً وحديثاً- معهد التراث العلمي بجامعة حلب- آذار ٢٠٠٧.

٣- الدكتور عبد الإله نبهان- التراث العربي مفهومه ومواقف المفكرين- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية- دمشق ٢٠٠٩.

٤- الدكتور عبد الكريم اليافي- دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية- تونس ١٩٨٤.

٥- الدكتور عبد اللطيف ياسين- فضل الأطباء العرب على أوربا في القرون الوسطى- جريدة تشرين السورية- العدد ٥٨٤٤ تاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٩٤.

٦- الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- دار الجيل- بيروت ١٩٨٩.

٧- الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٤.

٨- الدكتور محمد محفل- دور الحضارات القديمة في التراث العربي قبل الإسلام وبعده- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق- تشرين الثاني ٢٠٠٩.

٩- الدكتور محمود أحمد السيّد- بعض السمات البارزة للتربية العربية الإسلامية- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠١.

١٠- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق ١٩٩٢.

١١- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا الثقافة- مطبعة العجلوني بدمشق ٢٠٠١.

١٢- الدكتور محي الدين صابر- قضايا الثقافة العربية المعاصرة- الدار العربية للكتاب- تونس ١٩٨٣.

١٣- الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٧٧.

١٤- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩.

١٥- الدكتور نشأت حمارنة- مكانة العرب في تطور الطب- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق- تشرين الثاني ٢٠٠٩.

الفصل الثالث

التراث العربي عصرنة ونماذج *

(*) بحث ألقي في مؤتمر جمعية بيروت التراث- الجامعة اللبنانية- عام ٢٠٠٣.

الفصل الثالث

التراث العربي عصرنة ونماذج

نحاول في هذا الفصل أن نقف على مفهوم عصرنة التراث أولاً، ثم نقدم نماذج من هذه العصرنة متمثلة في المنهج العلمي التجريبي وفي المجالات اللغوية والتربوية، مادمنا لسنا في مجال الحصر، وإنما هي إطلالة على بعض من هذه النماذج.

أولاً- عصرنة التراث

إذا كان التراث مجموعة من الأعمال والمضامين والأشكال والقيم والمثل التي نشأت في الماضي القديم، وشقت طريقها إلى الماضي الحديث لتكوّن خلفيتنا وحالنا وكثيراً من مستقبلنا فإن النظر الدقيق يرى في التراث حياة لا موتاً وحركة لا جموداً، وعصرنة التراث تعني اختيار ما في التراث من نماذج وأصول اختياراً قائماً على الفهم والتمييز والفرز والتصنيف والتبويب والتقويم التحليلي الأمين البعيد عن الأهواء العارضة، ومن ثم ترشيح أكثر عناصر التراث قدرة على الإسهام في تغيير واقعنا باستخدام المنهج العلمي في التفكير.

إن عصرنة التراث لا تعني تقليده واعتماد كل ما ورد لدى أسلافنا في حياتنا المعاصرة، ولا أن نعود بحاضرنا ومستقبلنا فنصبهما في قوالب الأمس البعيد، ولكن تعني أن نبصر جذور غدنا الذي نراه مشرقاً في الصفحات المشرقة من التراث، وأن نجعل العدل الاجتماعي الذي نناضل من أجله الامتداد المتطور لحلم أسلافنا بسيادة العدل في حياة الإنسان، وأن نجعل قسمات العقلانية والقومية في تراثنا زاداً طيباً وروحاً ثورية تفعل فعلها في يومنا وغدنا، وبذلك يصبح تراثنا روحاً سارية في ضمير الأمة وعقلها، تصل مراحل تاريخها، وتدفع مسيرة تطورها خطوات وخطوات إلى الأمام، وبذلك وحده يصبح التراث طاقة فاعلة وفعالة وليس ركاماً وأكفان موتى كما يحسبه ويريده الكثيرون على حد تعبير الباحث محمد عمارة.[1]

---

(١) الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٤ ص٥.

ومن هنا تكون عصرنة التراث متمثلة في إعطائه قيمة وظيفية حاضرة بتحويله إلى مؤثرات فاعلة في حياتنا المعاصرة وفي بناء المستقبل الذي ننشد.

وإذا كان لماضي الأمة تأثير في حاضرها ومستقبلها كان لابد من فهم هذا الماضي ودراسته لأخذ الدروس والعبر منه، ولقد «جاء في أساطير الأولين أن الإله (جانوس) ملك (لاسيوم) أجار مرة الإله (سارتونس) المطرود من السماء، فكافأه (سارتونس) على صنيعه بمنحه بصيرة وقادة تدرك كل شيء، وتحيط بالماضي والمستقبل، ويمثل (جانوس) في الأساطير الرومانية برأس ذي وجهين، أحدهما ينظر إلى الماضي بعينين تلوح فيهما الخشية والعبرة والمثل، والآخر ينظر إلى المستقبل بعينين يتلألأ فيهما الشوق والتوقان والأمل، وإذا وضع هذا الرأس على أبواب المنازل والقلاع والمدن جعل أحد وجهيه ناظراً إلى داخل الباب، والآخر إلى خارجه، لأنه في نظرهم حارس الأبواب والمداخل، وإله الدخول والخروج».

إن هذه الأسطورة الرومانية توحي إلى الفيلسوف بكثير من المعاني كما يرى المجمعي المرحوم الدكتور جميل صليبا، فهي تشير أولاً إلى أن البصيرة الوقادة تجعل الإنسان قادراً على إدراك الماضي والمستقبل معاً، وهي تشير ثانياً إلى أن إدراك المستقبل متصل بإدراك الماضي ومبني عليه. وهي تشير ثالثاً إلى أن معرفة الماضي ضرورية لمعرفة الحاضر الآن، الحاضر كما يقول الفلاسفة حد متحرك فاصل بين الماضي والمستقبل، فالماضي كما يقولون مثل، والحاضر عمل، والمستقبل أمل».[٢]

إن بناء الحاضر في سبيل المستقبل يكون غالباً على جسر من الماضي، وإن الفرق بين المجتمعات الحية والمجتمعات الراكدة في مجال النظر إلى الماضي ليس في درجة التشبث بهذا الماضي، فكلاهما حريص أشد الحرص على ماضيه، ولكنه فرق في النوع، إذ تهتدي الشعوب المتطورة بروح الماضي وجوهره في حين تتمسك الشعوب المتخلفة بأشكاله وقوالبه المحنطة، والفرق بين النظرتين فرق بعيد يكاد يبلغ مبلغ الفرق بين الموت والحياة، ذلك لأن الوصول إلى

---

(٢) الدكتور جميل صليبا- مستقبل التربية في الشرق العربي- مطبعة جامعة دمشق- ١٩٦٢ ص٩١.

تجريد الماضي من حسيته المباشرة وأشكاله المادية والارتفاع به إلى منزلة النظر الروحي المجرد هو بداية السير في طريق التطور الحضاري.[٣]

فالتقدم الحقيقي يكون ببعث الماضي وتجديده، وبث الحيوية فيه، ثم وصله بأسباب الحياة، لأن شخصية الأمة مبنية على أساسه، ولا يمكن بعث الماضي حياً دون تغيير شامل في جوانبه بتغذيته بروافد الحاضر وشق قنواته وإزالة رواسب الزمن عن مجاريه حتى يكتسب الخصب، وتقوم على تربته الحياة من جديد.

أما الذين يريدون أن يعيدوا تراث الماضي بجرة قلم دون عناء وكد ذهن فلن يكون نصيبهم من النجاح أكثر من حسن النية، ولا يمكن إعفاؤهم من تهمة تعطيل التقدم، وإفساد التراث الذي يجب أن نفهمه فهماً جديداً، يبعث روحه الفاعلة في حياتنا المعاصرة، ويفجر قيمه الكامنة في عمق أعماقنا لتشرق على وجودنا حركة وتقدماً ونماء.[٤]

والسؤال الرئيس الذي طالما وقف أمامه المفكرون هو : ماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟

أجاب المفكر العربي الدكتور زكي نجيب محمود عن هذا السؤال قائلاً:

«نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً، فإذا كان لدى أسلافنا طريقة تفيدنا في حياتنا الراهنة أخذناها، وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه، وكذلك نقف الوقفة نفسها من ثقافة معاصرينا من أبناء أوربا وأمريكا.

فإذاً المدار العمل، والتطبيق هو ما يستطاع سلكه في جسم الحياة كما يحياها الناس، أو كما ينبغي لهم أن يحيوها، فإذا ألفيت عند السلف طريقة تنفعني اليوم في بناء المنازل، أو في رصف الطرق، أو في إقامة الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، أو في طرائق التعبير باللفظ عما يريد الناس أن

---

(٣) الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- دار الجيل- بيروت ١٩٨٩ ص١١٧.

(٤) المرجع السابق ص٥٨.

يعبروا عنه مما تعتمل به نفوسهم اليوم كان ذلك هو التراث الذي نحييه».[٥]

ويتابع قائلاً: «لنأخذ من التراث جزءه العاقل المبدع الخلاق، وننبذ جزءه الآخر الخامل البليد، نأخذ جزءه العاقل المبدع الخلاّق لا لنقف عند مضمونه وفحواه نبدي ونعيد، بل لنستخلص منه الشكل كي نملأ مضمون هذا الشكل من عصرنا ومن حياتنا ومن خبراتنا».[٦]

ومن هنا كان إحياء التراث أو عصرنته يعني توظيفه ضمن مفاهيمنا المعاصرة، وإذا كان هذا هو مفهوم الإحياء فمن البدهي ألا يشمل الإحياء التراث بجميع مراحله وتناقضاته جملة وتفصيلاً، ومن البدهي أننا أحرار في أن نختار من التراث في ضوء معطيات واقعنا وملابسات عصرنا ومتطلبات مطامحنا في التقدم والازدهار، إذ إن ما ينبغي إحياؤه وبعثه لابد أن يكون جديراً بحياتنا الحالية، ومن البدهي أننا نجد في تراثنا ما ليس جديراً بالبقاء ولا بالحياة، وأن نجد في واقعنا من رواسبه ما ينبغي أن يستأصل ويزال، وقد لا تقل أهمية الهدم في هذه الحال عن أهمية البناء.[٧]

وهكذا يتضح من الناحية المبدئية أنه لا يمكن تبني التراث كاملاً لأنه ينتمي إلى الماضي، لأن العناصر المقومة للماضي لا توجد كلها في الحاضر، وليس من الضروري أن يكون حضورها في المستقبل هو حضورها نفسه في الحاضر، وبالمقابل لا يمكن رفض التراث كلياً للسبب نفسه، فهو شئنا أم كرهنا مقوم أساسي من مقومات الحاضر، وتغيير الحاضر لا يعني البداية من الصفر في أي مجال من المجالات.

إن التراث العربي الإسلامي الذي بين أيدينا اليوم لم يكن فقط انعكاساً إيديولوجياً للواقع الاجتماعي والاقتصادي في الحضارة العربية الإسلامية، إنه يضم إلى جانب ذلك رؤى ومفاهيم وتصورات دينية وفلسفية وأخلاقية وعلمية انتقلت إليه من الحضارات القديمة، مما يجعل

---

(٥) الدكتور زكي نجيب محمود- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت ١٩٧٣ ص١٨.

(٦) المرجع السابق ص٢٩.

(٧) الدكتور عبد العزيز العاشوري- لماذا إحياء التراث؟ ص٢٦.

الجانب الإنساني فيه، جانب الاستمرارية، يحتل مكانة بارزة.

ومع ذلك لابد من نظرة نقدية واعية للتراث تحترم عالميته في آن وخصوصيته التاريخية في الوقت نفسه، فلا يجوز مثلاً نقل صراعات الماضي إلى الحاضر، ففي هذا المجموع التراثي عناصر قابلة للحياة والتطوير، وأخرى انتهى أمرها بانتهاء لحظتها في سلسلة التطور، فالتراث خزان للأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها، أو ما هو قابل لأن يعينها على الحركة والتقدم.[٨]

لابد إذاً من الاختيار، ومعيار الاختيار دائماً اهتمامات الحاضر والتطلعات المستقبلية، وعندما نتحدث عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل يجب أن ننطلق من رؤية واضحة واعية من حيث إن الماضي والمستقبل هما كالحاضر ليسا واقفين جامدين، بل هي صيرورة وحركة ونتيجة صيرورة وحركة، وأن كل اختيار واصطفاء ومعاصرة تشكل قراءة جديدة.

إننا في وطننا العربي محتاجون إلى العقلانية لفهم حاضرنا وبناء مستقبلنا، ولفهم ماضينا أيضاً، فالتراث العربي لم يدرس دراسة عقلانية وافية بعد، وعملية النقد المنهجي لتراثنا لم تتم بعد، وإن الرؤية العقلانية في تجديدنا لتراثنا تحتم علينا اعتماد الحوار منطلقاً ومنهجاً وسلوكاً في منأى عن التعصب والتزمت والاستبداد بالرأي.

وفي ضوء المنهج العقلاني نختار من التراث ما يحرك في الشعب الذاكرة والعمل، ويعمل على إيقاظه لا على تخديره «والوسيلة المثلى لإحياء الرغبة في إحياء التراث العربي هو مزجه بالحياة المعاصرة ودمجه في داخلها،ة فلا يشارفه الإنسان كما يشارف متحفاً قديماً للآثار المحفوظة، بل يشارفه كما يدخل في معترك الحياة، وينغمس في تيار العاطفة والشعور، وليس ذلك بعسير إذا حسنت المطالعة، وحسن الاجتهاد، وحسن التنبيه والاختيار».[٩]

إن تراثنا العربي لم يلق ما هو جدير به، وما هو جدير بنا من تمحيص وتدقيق قبل الرفض

---

(٨) الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١ ص٣٨.

(٩) عباس محمود العقاد- مجلة الهلال- عدد نيسان ١٩٣٦.

أو القبول إبان يقظتنا القومية، وهذا يدعونا إلى إعادة نظر واعية إلى تراثنا لتأكيد خير ما فيه، وطرح ما لم يعد صالحاً للحياة، وربط ذلك كله بظروف الحاضر، فيكون بناء المستقبل متصلاً بماضي الأمة، وبذلك لا يحدث انفصام في الشخصية الحضارية للأمة. وتأكيد الذات بالرجوع إلى التراث يعني مواجهة الحياة الحديثة بمعدة تتناول كل صالح وتأكله وتهضمه وتحيله إلى غذاء يسري في الجسد. وهذا الرجوع البناء إلى التراث هو السبيل الوحيد للإبداع والأصالة، وبمثل هذه الروح تطورت الصين واليابان، وقامت على ذلك كل الحضارات الأصلية.[١٠]

وليس معنى ذلك أن نقفل الباب أمام الفكر الإنساني بدعوى أن ما لدينا من تراثنا يكفينا، فهذا عين الجهل، إذ المفروض بعد أن نؤكد ذاتيتنا وإنتينا وأصالتنا وليدة تراثنا الحي لا نريد أن نبقى حيث كنا أسرى لماضينا مهما يكُ جمال هذا الماضي، إذ إن بعضاً من مفكرينا المعاصرين ما يزال مأخوذاً بالماضي ومعجباً به إلى درجة التقديس لأصحابه، وإنما نريد أن ننتقل من هذا الماضي إلى المستقبل بالانفتاح على كل ثرات الحضارة، نأخذ منها ما يفيدنا ويقوّي شخصيتنا، ويسهم في إبداعنا دون أن نكون مقلدين لأحد أو خاضعين لضغط، وهذا هو معنى الاستقلال الحضاري للإبداع، نختار ونرفض حين نريد دون ضغط أو إكراه، ولابد أن يكون اندفاعنا القوي للتزود من العلوم المعاصرة والفنون التي تتيحها لنا الحضارة الحديثة مربوطاً باندفاع لا يقل عنه قوة لاكتشاف ذواتنا بدراسة تراثنا في كل أبعاده القريبة والبعيدة.

وإذا كنا ننشد في توجهنا المستقبلي الحفاظ على الذاتية الثقافية العربية فإن الحفاظ عليها لا يعني الجمود في إطار من الموروث القديم، بل هو عملية تتيح لمجتمعنا أن يتغير ويتطور دون أن يفقد هويته الأصلية، وأن يتقبل التغيير دون أن يغترب فيه، إنه التفاعل بين الأصالة والمعاصرة، وتأكيد الذاتية الثقافية لا ينفصل عن القيم المرتبطة بالتراث بمعناه العام، وعصرنة التراث وإحياؤه عمل مرتبط بالفعل الإبداعي ومنطلق للثقافة الحية ومنبع لتجديد مستمر لإبداعية تتغذى من كل أشكال الثقافة الذاتية الموروثة.

---

(١٠) الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- مرجع سابق ص١٦٨.

ولقد تبنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الاستراتيجيات التي وضعتها على الصعيد العربي مفهوم الماضي الحيّ، ورأت أن الأصالة تعبر عن هذا المفهوم، إذ إنها تعني اختيار ما في التراث من نماذج وأصول اختياراً قائماً على الفهم والتمييز، وعلى ما تنطوي عليه من الإبداع والابتكار، وعلى ما تدل عليه من ذاتية ثقافة الأمة، وذاتية العبقريات التي أسهمت في تطور هذا التراث في مجالات القيم والفكر والثقافة، أو في مجالات العلم والفلسفة، أو في مجالات السياسة والإدارة، وجوهرها تأكيد خصائص الإبداع والابتكار، وعلى ذاتية الثقافة وتميزها، وعلى اتصالها بعراقة الأمة في ماضيها الحي، وعلى استمرارها في التعبير عن شخصيتها في مستقبلها.

كما أن التجديد لم يعد مجرد احتذاء الثقافة الغربية والإقبال عليها والاقتباس منها، وإنما حسن الاختيار والمفاضلة بين عناصرها، والتمييز بين الحسن والسيئ وعدم الوقوف عندها، بل جعلها منطلقاً إلى الإبداع والابتكار بنماذج فيها تعبير عن ذاتية الأمة وتأصيل لثقافتها.(١١)

ثانياً- نماذج مشرقة من عصرنة التراث

لو رحنا نستعرض النماذج التي يمكن أن تكون في نسج حياتنا المعاصرة من تراثنا لأعيانا الحصر والتعداد، ذلك لأن ثمة مفاهيم واتجاهات نعتمدها في حياتنا المعاصرة، وقد يظن بعضنا أنها من إنتاج الغرب، هي موجودة في تراثنا، ولن أتمكن في هذا المجال من حصرها، وحسبي أن أشير إلى بعضها متمثلاً في الوظيفية والمنهج التجريبي، والحوار، واحترام الرأي، وحقوق الإنسان، والتربية البيئية، كما تجلّى في الميادين اللغوية والتربوية والاجتماعية...الخ. وفيما يلي فكرة موجزة عن بعض من هذه النماذج المشرقة في تراثنا:

١- **المنهج التجريبي**: سبقت الإشارة إلى ذلك من قبلُ على أنه من سمات تراثنا العربي، ويجيء في مقدمة عصرنة التراث هذا المنهج التجريبي والمعاينة، وهو المنهج الذي اعتمده العلماء العرب أسلوباً في الوصول إلى حقائق الحياة وإدراك كنهها، إذ إن لعدد غير قليل من رجال الحضارة العربية فضلاً في الحث على تحصيل المعارف بطريق المعاينة

---

(١١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩ ص٨١.

والاختبار والتجربة، والبعد عن تحصيلها بطريق النقل والقياس الأرسطي، وسبيلهما في الغالب هو الحفظ والاستظهار.

وتعد دعوة الجاحظ إلى المعاينة والتجربة أول صيحة في الفكر العربي الإسلامي تسبق دعوة «فرانسوا رابلية» الفرنسي المتوفى سنة ١٥٥٣م والذي نادى في مثابرة وإصرار بضرورة نبذ المذهب الجدلي في التعليم والتربية، وأن يستبدل به مذهب التجربة والاختبار في تحصيل المعرفة. كما سبق العالم البريطاني «فرانسيس بيكون» المتوفى سنة ١٦٢٦م والذي دعا في حماسة شديدة إلى مذهب الملاحظة والتجربة في التعليم.

تلك هي دعوة الجاحظ ومنهجه مع أنه عاش في وسط عاكف على الحفظ، ويهتم بالمحفوظ، ويعلي من قدر الحفاظ الذين كانوا يتباهون بنوادر الحفظ وغرابته، ويجعلونه سبباً إلى الشهرة، والولوج إلى أبواب الخلفاء والأمراء وذوي الجاه، ومع أن الجاحظ أيضاً متعمق في الأدب ومسائل الفكر لم يكن ليؤمن بالحفظ قدر إيمانه بالتجربة والمعاينة في كسب المعرفة إذ يقول: «ليس يشفيني إلا المعاينة»، وتجلى ذلك في التجارب التي كان يجريها على الحشرات.

ولقد أشرنا من قبلُ إلى أن المنهج التجريبي قد شق طريقه في الطب وكان ذلك على يد يوحنا بن ماسويه نابغة الطب العربي في عهد الرشيد، حيث كان يعمل على تشريح القردة المجلوبة من بلاد النوبة في مصر إلى بلاط الخليفة العباسي، لعدم تمكنه من تشريح الجثث البشرية لما في ذلك من مجافاة لروح الإسلام الذي يعلي من كرامة الإنسان. ولقد أشرنا من قبلُ إلى جهود ابن الهيثم في تشريح العين.

ولقد انعكست تقاليد العرب في الطب في الناحية العملية في طرائق التعليم الطبي السريري القائمة على مشاهدة المرضى والاستماع بدقة إلى شكواهم واستقصاء أحوالهم وزيارة منازلهم. ومن وسائل ذلك المرور على أسرّة المرضى في البيمارستانات حيث كان شيوخ الأطباء يصطحبون تلاميذهم، ويفسرون لهم أحوال المرضى، ويشيرون عليهم بالعلاج، وهي وسيلة التعليم الطبي السليم القائم على المشاهدة والتجربة، وليس نقلاً عن الكتب والمخطوطات.

وفي أغلب المجالات العلمية كان ثمة علماء عرب أدهشوا الآخرين بعلمهم، وحملوهم

على الإيمان بقوة العقل العربي وإبداعه، ومن هؤلاء العلماء (ابن سينا) الذي يعد من أشهر مشاهير العلماء العالميين، و(جابر بن حيان) وهو من ألمع علماء الكيمياء العالميين، و(البيروني) وله بحوث نادرة في الرياضيات والفلك إضافة إلى التاريخ والجغرافية حتى قيل عنه إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ، و(البتاني) وله إسهامات كبيرة في علم الفلك والرياضيات، و(ابن الهيثم) واضع أسس الطريقة العلمية الحديثة فكتاباته في الضوء أدت إلى اختراع النظارات كما تشير إلى ذلك دائرة المعارف البريطانية.[١٢]

ولقد أسهم العرب أيما إسهام في علم التعمية والرياضيات، وكان للخوارزمي فضل كبير في الإضافات التي وضعها في علم الحساب والجبر، وهو أول من وضع الجبر مستقلاً عن الحساب، ووضع العرب علم المثلثات الكروية المائلة، واستعملوا الممارسات والقواطع في قياس الزوايا والمثلثات، «وهذّبوا الأرقام الهندية، وأوجدوا طريقة جديدة لها هي طريقة الإحصاء العشري، واستعملوا الصفر للغاية التي نستعملها الآن، ووضعوا علامة الفاصلة للكسر العشري، وما كان لذلك كله من أثر في تقدم الرياضيات والعلوم.

وأبدع العرب في الكيمياء وسبقوا الغربيين في الالتجاء إلى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات، وإليهم يرجع الفضل في استحضار المركبات والحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة».[١٣]

وفي ميدان الرياضيات كان ثمة اهتمام بالمسائل العملية التي تتناول ما يقتضيه العصر، ويدور حول المعاملات التجارية والصدقات وإجراء الغنائم والرواتب على الجيوش، كما تتطرق إلى البريد وطرق البيع والشراء وهذه ميزة امتازت بها المؤلفات العربية القديمة، فلقد كان رياضيو العرب يفضلون المسائل العملية التي تتعلق بحاجات العصر ومقتضياته والمتصلة بحياة

---

(١٢) قدري حافظ طوقان- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك- الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية- القاهرة ١٩٥٤ ص١٨.

(١٣) المرجع السابق ص١٩.

الإنسان المادية.

٢- **في المجال اللغوي**: يعد التراث اللغوي العربي مصدراً للتجديد اللغوي في الحاضر والمستقبل، إذ إن أغلب المحاولات التي قام بها العلماء العرب في المجال اللغوي يتسم بالروح العلمية والفكر الموضوعي، كما هي عليه الحال عند أبي الأسود الدؤلي في استقرائه القرآن الكريم وأشعار العرب في الجاهلية بغية استنباط قوانين للعربية.

إن ما أنجزه العلماء العرب في مجال الدراسات الصوتية بدءاً من القرن السابع الميلادي من تقسيم للأصوات وتصنيفها ووضعها بحسب خصائصها وسماتها المميزة وخصوصاً على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي في مقدمة كتاب «العين»، وسيبويه في كتابه، وابن جني في الخصائص وسر صناعة الإعراب، قد هيأ السبل لبلورة الصوتيات الحديثة كما صاغها «فرديناند دوسوسير» و«تروبتسكاوي» و«بلومفيلد».[١٤]

وها هو ذا (سيبويه) ومن بعده (ابن جني) يوصّفان السمات المميزة للحروف بدقة متناهية ومنهجية علمية لا نجد مثيلاً لها إلا في الدراسات الصوتية الحديثة.

وكان العلماء العرب سباقين في الصوتيات، فقد تنبهوا إلى أحكام تبدل خصائص الأصوات بحسب السياق الصوتي الذي ترد فيه، وكانت لهم بصمتهم في الدراسات المورفولوجية، فدرسوا الإخفاء والإظهار والقلب والإبدال والإدغام، وكلها لها ما يقابلها اليوم في الدراسات اللسانية الحديثة.[١٥]

ووضع اللغويون العرب الكلمات في أبواب، وهكذا فعلت مدرسة القواعد التوليدية التي لجأت إلى منهج أكثر تجريداً في التبويب والتصنيف، تقسم فيه الأبواب النحوية بحسب خصائصها وسماتها التنظيمية، ثم انتقل التبويب إلى مرحلة أكثر تجريدية يشتمل العناصر

---

(١٤) الدكتورة لبانة مشوح- علوم اللغة العربية في ضوء اللسانيات الحديثة- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق وعنوانه «نحو رؤية معاصرة للتراث»- ٢٠٠٩ ص٣.

(١٥) المرجع السابق ص ٤.

المعجمية والعناصر الوظيفية، فلم يعد يكتفي بتبويب الاسم والفعل والحرف والنعت والظرف، بل تعداه إلى التصنيف في وحدات تركيبية وظيفية تختص ببعض السمات النحوية والصرفية والدلالية للعناصر المعجمية كالوحدة الوظيفية العائدة للزمن، ووحدة صيغة الفعل، والنفي، والتعدي، والابتداء، والتوكيد، إلى ما هنالك من صيغ وظيفية يستكمل الكلام بتمثل خصائصها.[١٦]

وتناول النحاة العرب بإسهاب موضوع الإعراب والإبانة، وميزوا بين الوظيفة النحوية وحالات الإعراب، وميز بعضهم بين الوظيفة النحوية الشكلية والوظيفة الدلالية، يقول ابن جني: «يقول النحويون إن الفاعل رفع، والمفعول به نصب، وقد ترى الأمر بضد ذلك ألا ترانا نقول: «ضُرب زيدٌ» فنرفعه وإن كان مفعولاً به، ونقول: «إن زيداً قام» فننصبه، وإن كان فاعلاً، ونقول: «عجبتُ من قيام زيد» فنجره وإن كان فاعلاً.[١٧]

وميّز العرب القدماء الموضوع من المحمول في الجمل الخبرية، والمسند من المسند إليه، وبناء على ذلك تأسست قواعد Port Royal التي استوحت منها القواعد التحويلية التوليدية الكثير، فجاء مفهوم الموضوع والمحمول والعلاقة بينهما جوهرياً في أحدث صيغة لها، ألا وهي نظرية الحد الأدنى التوليدية. كما أن نظرية (العامل) في النحو العربي أسس عليها (تشومسكي) نظريته التوليدية. ومن المفاهيم الأساسية التي نجدها في التراث النحوي العربي مفهوما الحذف والاستتار، وهما مفهومان استعادتهما القواعد التوليدية التحويلية التي نحت أكثر إلى التجريد في التعامل مع مكونات الجملة، فطورت مفهوم الاستتار. كما نجد في التراث النحوي العربي مفهومي التقديم والتأخير، وهو ما يشكل أحد الجوانب الأساسية من نظرية (تشومسكي) التحويلية التي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي والتي تقوم على أن بعض التراكيب النحوية والصيغ الصرفية تنشأ نتيجة تقديم أو تأخير بعض عناصر الجملة بما يتفق وبعض الشروط

---

(١٦) المرجع السابق ص ٦.

(١٧) المرجع السابق ص ٧.

والقواعد العامة وقواعد اللغة ذات الصلة.[١٨]

وكان اللغويون العرب أول من أشار إلى وجود بنيتين للغة بنية سطحية ظاهرة هي تجلياتها الصوتية والنحوية والصرفية والدلالية وبنية عميقة متضمنة، وذلك عندما أشاروا إلى أن هنالك متأخراً (لفظاً) ومتأخراً (معنى).

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة مفاهيم لغوية عربية كثيرة لا تعرفها اللسانيات الغربية مثل العامل، وهو يفسر الكثير من الظواهر اللغوية، وقد ضيَّق مفهومه المتأخرون فحصروه في كونه سبب الإعراب، وهو يتجاوز ذلك في الحقيقة، إذ إنه محور البنية لكل جملة في أي لغة هندية أوربية وحامية سامية، وقد يكون مساوياً للصفر، وهو مفهوم الابتداء في العربية، وهذا غير معروف عند الغربيين، ومثل ذلك في الأهمية مفهوم البناء للكلمة أي الوزن فهو من أعظم ما ابتدعه العلماء العرب على حدّ تعبير الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح.[١٩]

وإذا كان اللسانيون المعاصرون يرون أن اللسان أداة تبليغ أو تواصل فإن الجاحظ في تراثنا العربي أشار إلى أن الخطاب اللغوي هو عبارة عن عملية تواصل يستوجب قيامها ثلاثة أركان هي :

١- المتكلم

٢- السامع

٣- الكلام

وقناة التواصل بين المتكلم والسامع هي في الأغلب المشافهة. ودافع الجاحظ عن الكتابة والكتاب مما يمكن أن يعد ذلك تحولاً في النظرة إلى الكتابة، ويرى أن الذي يربط بين أركان التواصل إنما هي الوظائف، وهي عنده ثلاث:

---

(١٨) المرجع السابق ص ٨.

(١٩) الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح- أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق، وعنوانه «نحو رؤية معاصرة للتراث» ٢٠٠٩ ص٩.

١- الوظيفة الإفهامية أو الفهم والإفهام (البيان والتبيين).

٢- الوظيفة الخطابية.

٣- الوظيفة الشعرية.

والوظيفة الإفهامية هي الأصل، ولا يتصور الجاحظ خطاباً لغوياً لا يكون الفهم أو الإفهام قاعدته ونهايته في الوقت نفسه، وغاية هذه الوظائف هي السامع، إلا أن الوظيفة الإفهامية توضح مكانة المتكلم في نظرية الجاحظ لأنه مبدع القول ومنجزه في الوقت نفسه.[٢٠]

وتنظر اللسانيات المعاصرة إلى اللغة نظرة شمولية متكاملة على أساس أنها نظام System وكان اللغويون العرب القدمات من أمثال الجاحظ وأبي نصر الفارابي، وابن خلدون، والجرجاني، ينحون المنحى المنظومي الشمولي المتكامل في نظرتهم إلى اللغة، فـ(أبو نصر الفارابي) يرى أن علم اللسان عند كل أمة ينقسم إلى سبعة أجزاء عظمى هي:

١- علم الألفاظ المفردة

٢- علم الألفاظ المركبة

٣- علم قوانين الألفاظ المفردة

٤- علم قوانين الألفاظ المركبة

٥- علم قوانين تصحيح الكتابة

٦- علم قوانين تصحيح القراءة

٧- علم قوانين تصحيح الأشعار[٢١]

كما يرى (ابن خلدون) أن علوم اللسان أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب.

وإذا كانت اللسانيات المعاصرة ترى أن لا أفضلية بين اللغات، إذ لا أفضلية للغة على أخرى فإن (ابن حزم) في تراثنا العربي في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» ينحو هذا المنحى إذ

---

(٢٠) الدكتور محمود أحمد السيّد- في تراثنا العربي- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢ ص١٤.

(٢١) أبو نصر الفارابي- إحصاء العلوم- مطبعة السعادة بمصر- القاهرة ١٩٣١.

يقول: «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا معنى لا وجود له، لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة ولا جاء في نص تفضيل لغة على أخرى، وقد قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»، وقال تعالى: «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك، وقد غلط في ذلك (جالينوس) فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، وهذا جهل شديد، لأن كل سامع لغة ليست لغته لا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق».[٢٢]

وإذا كانت الاتجاهات التربوية المعاصرة تتبنى الممارسة والتكرار والتعزيز أساليب في تكوين المهارات اللغوية فإن (ابن خلدون) في تراثنا العربي كان قد أشار إلى ذلك في مقدمته، إذ إنه أبان أهمية التكرار في تكوين الملكات على حد تعبيره، ويرى «أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصفات، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب إتمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التآلف التي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة».[٢٣]

وإذا وقفنا على الجانب الوظيفي في المعرفة، الجانب الذي يؤدي للدارس وظيفة في تفاعله مع المجتمع فإننا نلاحظ أن الجاحظ كان من أبرز الدعاة له في تراثنا العربي، وقد سبق كلاً من «ليونارد ووارد وآيكن» في دعوته إلى وظيفية المعرفة اللغوية واختيارها على أسس علمية من

---

(٢٢) ابن حزم- الأحكام في أصول الأحكام- مطبعة السعادة بمصر- القاهرة ١٣٤٥هـ.

(٢٣) ابن خلدون- المقدمة- دار إحياء التراث العربي- بيروت. د.ت.

واقع الحياة.

فالجاحظ يرى أن الإكثار من النحو وتدريسه لذاته مضيعة للوقت ومشغلة عما هو أولى – يعني المتعلم– به، فيقول: «وأما النحو فلا تشغل قلبه– أي الصبي– إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من رواية المثل الشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع، وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور، ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجدي في المعاملات، ولا يضطر إليه في شيء».

والجاحظ يرى أن ثمة موضوعات في النحو لا يضطر إليها المتعلم في تفاعله مع الحياة الاجتماعية، وأن عويص النحو لا يجدي في المعاملات، وقد تبنى معيار الاستعمال اللغوي منهجاً له في واقع الحياة.

وقد دعا في كتابه «البيان والتبيين» إلى اعتماد مبدأ الشيوع والتواتر في مواقف الحياة الوظيفية في أثناء اختيار المادة اللغوية لأن الحاجة إليها أشد على حد تعبير الجاحظ إذ يقول:

أنشدني أبو محمد اليزيدي:

وخلة اللفظ في الياءات إن فقدت كخلة اللفظ في اللامات والألف

وخصلة الراء فيها غير خافية فاعرف مواقعها في القول والصحف

وهو يزعم أن هذه الحروف أكثر تواتراً وتردداً من غيرها، والحاجة إليها أشد، واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم فإنك متى حصلت جميع حروفها، وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد». [٢٤]

وهذا المنحى الذي أشار إليه الجاحظ هو الذي تعتمده الدراسات اللسانية المعاصرة في اختيار المفردات والقوالب اللغوية المستخدمة في اللغة المنطوق بها واللغة المكتوبة في مواقف الحياة، فما كثر

---

(٢٤) الجاحظ– البيان والتبيين.

استخدامه عد أساسياً، وما قل استخدامه جاء في مرحلة تالية.

وثمة من أشار إلى «أن الطالب في بريطانيا قبل أن يسمح له بالتخصص فيما اختاره من فروع الدراسة يطلب إليه أن يؤدي امتحاناً عسيراً في المواد العلمية حتى إن كان سينقطع إلى الدراسات الأدبية أو الفنية الصرف ليتأكد أولو الأمر أنه أتقن قدراً صالحاً من الطبيعة أو الكيمياء وقوانين السكون والرياضيات التطبيقية والرياضيات البحتة والقوانين الهندسية والآلية وعلم النبات وعلم الحيوان والدراسات العلمية والإنسانية من اجتماعية ونفسية وعقيدية إلى آخر تلك الدراسات التي تبحث في الكون ونواميسه والمادة وصفاتها والحياة وميزاتها وأجناسها المتعددة والإنسان ومواهبه الخاصة، إذ ذاك لا قبله يسمح له بأن يتخصص إن شاء في الشعر أو النحت أو الرسم أو الموسيقا أو اللغات الشرقية». [٢٥]

والواقع أن ما يشير إليه الدكتور النويهي في كتابه «ثقافة الناقد الأدبي» حول ثقافة ما ينبغي لمن يتخصص في الشعر أو غيره أن يتزود بها قبل تخصصه كان قد طبقه عملياً ابن قتيبة في تراثنا العربي، إذ إن أبا محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى عام ٢٧٦هـ دعا في كتابه «أدب الكاتب» إلى أن يكون الكاتب مزوداً بعلوم متعددة وثقافة موسوعية حتى يكون كاتباً حقاً، فها هو ذا يقول: «إن كتبنا هذه لمن شدا شيئاً من الإعراب، فعرف الصدر والمصدر، والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء، عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك، ولابد للكاتب من النظر في الأشكال لمساحة الأراضي حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار، والمربعات المختلفة، والقسي والمدورات والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل في الأراضي لا في الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين، وكانت العجم تقول: من لم يكن عالماً بإجراء المياه وحفر فرض المشارب، وردم المهاوي، ومجاري الأيام في الزيادة والنقصان، ودوران الشمس، ومطالع النجوم، وحال القمر في استهلاله وأفعاله، ودوران الموازي، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا، ونصب القناطر والجسور والدوالي

---

(٢٥) الدكتور محمد النويهي- ثقافة الناقد الأدبي.

والنواعير على المياه، وحال أدوات الصناع، ودقائق الحساب، كان ناقصاً في حال كتابته».

ولابد للكاتب أيضاً من النظر في جمل الفقه ومعرفة أصوله من حديث رسول الله ﷺ وصحابته كقوله: «البيّنة على من ادَّعى واليمين على المدَّعى عليه، ولا وصية لوارث»...الخ.

ولابد له أيضاً من دراسة أخبار الناشئ وحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور.[٢٦]

ويتضح لنا من كلام ابن قتيبة أن ما أشار إليه الدكتور النويهي عن حال من يعد لتدريس الأدب في بريطانيا كان قد رسخ دعائمه ابن قتيبة في كتابه «أدب الكاتب»، ولقد وجدنا أن الأدب في تراثنا العربي كان الأخذ من كل علم بطرف، فالجاحظ الأديب كان ذا ثقافة واسعة في التاريخ وعلوم اللغة والفلسفة، وكان رائداً من رواد العلم التجريبي حتى قيل: «إن كتبه تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً».

٣- **في المجال التربوي**: ويعد التراث العربي في المجال التربوي مصدراً من مصادر عصرنة التراث وتجديد التربية في الحاضر والمستقبل لما فيه من مبادئ ومفاهيم وخبرات وتجارب يمكن للفكر الحديث اعتمادها وتأصيلها، ذلك لأنه تراث يقرر مكانة الإنسان وحقه في الاعتماد على عقله وضميره وجهوده الذاتية في التعلم، ومن الأمور الإيجابية في هذا التراث النظر إلى التربية اللا مدرسية على أنها جزء من حياة المرء، والنظر إلى تعليم الكبار على أنه سبيل للتغيير والتطور الاجتماعي، والنظر إلى الحرية الفكرية على أنها أساس لتطوير الشخصية الإنسانية ونحوها ونمو العلم والمعرفة، وعلى أن التعلم المستمر حق من حقوق الإنسان في كل زمان ومكان.

وثمة مراعاة للمتعلم في تأكيد حريته في السعي إلى التعلم بإسقاط الحواجز والقيود المادية والاجتماعية، وفي تعرف استعداداته وطبائعه على النحو الذي يراه (الفارابي)، وإلى التبكير في تربيته وتعليمه بين أقرانه وتوجيهه مهنياً كما يرى (ابن سينا)، وإلى مراعاة قدراته العقلية والتدرج

---

(٢٦) ابن قتيبة الدينوري- أدب الكاتب- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٩٥٤.

في تعليمه من السهل إلى الصعب، والانصراف إلى العلوم واحداً بعد الآخر، وتجنب فصل الدروس بعضها عن بعض، ومراعاة التتابع والتكرار خشية النسيان، وتجنب الشدة على المتعلمين لأنها تفسد معاني الإنسانية، وتضر بشخصية المتعلم، وتفضيل العلوم المقصودة لذاتها على العلوم التي هي أدوات لغيرها، وهي المبادئ التي حددها (ابن خلدون) في مقدمته، ويؤيدها الفكر التربوي الحديث، كما أن التراث التربوي العربي عني أيما عناية بالتربية البيئية حفاظاً على مصادرها الطبيعية ورأفة بأحيائها وحماية لعناصرها ومكوناتها في أثناء الحروب.[٢٧]

ومن يلق نظرة على تراثنا العربي يجد أنه زاخر بنماذج من التربية على حقوق الإنسان حفاظاً وصوناً واحتراماً، ويجيء في مقدمتها حلف الفضول، إذ اعتاد تجار قريش أكل أموال الناس بالباطل، وقد حدث لرجل يمني أن باع سلعة إلى واحد من بني سهم من قريش، فماطل في دفع الثمن حتى يئس اليمني، فاعتلى مكاناً مرتفعاً وقريش في مجالسها حول الكعبة، ورفع صوته يشكو ظلامته، فمشت قريش بعضها إلى بعض يحركها بنو هاشم، واجتمعت عدة بطون في دار الندوة، واتفقوا على إنصاف المظلوم من الظالم، وساروا إلى دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا هناك على إباء الضيم وهجر العار وأداء الحق، فسمي «حلف الفضول».

وروي أن الرسول ﷺ شهد حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان قبل نزول الوحي عليه، وقال بعد ذلك «والذي نفسي بيده لقد شهدت في الجاهلية حلفاً يعني حلف الفضول، أما لو دعيت إليه اليوم لأجبت».

ومن المعروف أن العرب في جاهليتهم كانت تستبد بهم أهواؤهم، وأن حقوق الإنسان لم تكن مصونة، ويمكننا أن نتصور حالهم قبل الدعوة الإسلامية من قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة يوم أن هاجر إليها مع نفر من رفاقه، إذ قال جعفر عليه السلام مخاطباً النجاشي الذي استفسر منه عن الدين الجديد: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام،

---

(٢٧) الدكتور محمود أحمد السيّد- التراث بين الماضي الحي والغد المنشود- مجلة العرب- دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع- الرياض ج٩ و١٠ آذار ونيسان ٢٠١٠ ص٥٥٢.

ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحله الله لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».[٢٨]

ويمكننا أن نتصور عظمة التربية المحمدية في تغيير العادات، وتكوين الاتجاهات، حتى تمكنت من بناء حضارة عملت على تحرير العبد، وتحرير المرأة، والقضاء على الاستغلال، وحققت المساواة بين البشر جميعاً في الحقوق والواجبات، وأضحت المساجد مدارس يؤمها جميع الناس من مختلف الألوان والأجناس، وبعض الذين يحاضرون لم يكونوا من العرب ولا من اللون الأبيض، والذين أقاموا صرح الحضارة العربية لم يكونوا من جنس واحد، ومع ذلك ظهر نتاج غير العرب منهم باللغة العربية، وكان عطاؤهم المثمر في إطار العروبة وقيمها البناءة، وكانت التربية الإسلامية أول من طبق مبدأ مجانية التعليم وإلزاميته معاً، فالعلم فرض على كل مسلم ومسلمة، وليس ثمة استثناء بين فرد وآخر في نيل هذا الحق.

وجميل جداً أن نتعرف باقة من مواقف التربية الإنسانية الخالدة في تراثنا العربي كما تتجلى فيما يلي:

❖ في غزوة الطائف سنة ثمان للهجرة، حاصر المسلون حصن الطائف عدة أيام، ونادى منادي رسول الله ﷺ «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» وما إن سمع العبيد

---

(٢٨) الدكتور محمود أحمد السيّد- في تراثنا العربي- مرجع سابق ص٤٢.

أجراس الخلاص تأذن بمجيء الحرية حتى سارع العديد منهم إلى الخروج من سجن المجتمع الطبقي ولاذوا بشمس الحرية والمساواة.

نزلوا من أسوار الطائف، وهبطوا إلى معسكر الكادحين، فأعتقهم رسول الله ودفع كلاً منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، وارتحل الرسول فرحاً لأنه حقق أمنيته، فهو لم يفتح الطائف، ولكنه حرر العبيد، وشرع يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وإذا كانت الثورة قد انضم إليها أناس من فئات مختلفة، بعضهم موسرون يمتلكون عبيداً فإن الرسول ﷺ حث المؤمنين من أنصار الثورة على عتق العبيد بشتى الطرق، وأمر بإطعام العبد وكسوته طبقاً لحالة مالكه، وأوجب حسن معاملته، وحظر ضربه ومنع إذلاله لعبوديته، وقال: «العبيد إخوانكم»، ثم ضرب المثل بنفسه، فأعتق مذ كان بمكة عبده زيد بن حارثة وتبناه، وحذا الآخرون حذوه، فعولج الرق من منبعه: الفقر والدين.

ثم التفت إلى إلقاء رافد العبودية نتيجة الحرب والأسر، واستطاعت الثورة أن تحقق أحد أهدافها في القضاء على انقسام المجتمع إلى أحرار وعبيد داخل الشعب الواحد قبل أن تندلع نيران الحرب الأهلية الأمريكية بما يزيد على اثني عشر قرناً.[٢٩]

وحث الإسلام على حسن تربية الأمة (العبدة) وعتقها والزواج منها، فقد كان لعبد الله بن رواح، أمة سوداء، غضب عليها فلطمها، ثم فزع، فأتى النبي فأخبره بخبرها، فقال له النبي: ما هي يا عبد الله؟ قال: يا رسول الله هي تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال: «هذه مؤمنة»؟ فقال عبد الله: «فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها» ففعل.

وقضت الرسالة الإسلامية على التمييز بسبب اللون أو العنصر، كان من زعماء الثورة بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وعمار العربي فلا تمييز بسبب الانتماء القومي أو

---

(٢٩) محمود منقذ الهاشمي- الإسلام وعالمية حقوق الإنسان- مركز الإنماء الحضاري- حلب ١٩٩٥.

العنصري، وأصبح سلمان الفارسي أميراً على المدائن، وعمار بن ياسر أميراً على الكوفة بعد أن دخلت الثورة إلى أرض العراق.

كل المسلمين متكافئون، وكل الثوار متساوون، وهم جميعاً متحدون، لا فرق في ذلك بين الرومي والعربي والحبشي والفارسي، ولا فرق بين الحر والعبد والشريف والوضيع، كلهم أبناء آدم ينصهرون في بوتقة واحدة «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».[٣٠]

وختم الرسول ﷺ وصاياه في خطبة الوداع قائلاً «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى».

❖ في غزوة مؤتة أوصى الرسول ﷺ أصحابه قائلاً: «أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا- الغلول السرقة- ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعته، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء».

ولكم نستقي من هذه الوصية دروساً وعبراً في الحفاظ على حقوق الإنسان أياً كان وصون البيئة وحمايتها. وفي خلافة علي عليه السلام أمر رجاله في الحرب أن يلتزموا بما يلي: «لا تنتهكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تهيجوا امرأة بأذى»، وكان من سيرة علي ألا يقتل مدبراً ولا يجهز على جريح، ولا يكشف ستراً، ولا يأخذ مالاً.

❖ إن معيار التمايز بين الحضارات يقوم على مدى احترام إنسانية الإنسان والحفاظ على حقوقه وكرامته، والنموذج التالي يوضح كيف أن التربية الإسلامية سمت بالإنسان وبوّأته المكانة التي هو جدير بها، فلقد غضب أبو ذر الصحابي الجليل من بلال الحبشي العبد الأسود، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذر الحدة، فقال لبلال: يا بن

---

(٣٠) المرجع السابق.

السوداء، فشكاه بلال إلى النبي، فقال لأبي ذر: أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، فقال أبو ذر: على ساعتي هذه من كبر السن، فقال له الرسول: نعم هم إخوانكم، فندم أبو ذر وتاب حتى إنه أمر بلالاً أن يطأ على وجهه مبالغة في الندم والتوبة. وكلنا يعلم مكانة أبي ذر عند رسول الله وعنه يقول: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة منك يا أبا ذر»، ومع ذلك لم يجامله، إذ لا تمايز بين الناس بسبب اللون أو العنصر.

وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز شكت جارية سوداء تسمى «فرتونة» إلى الخليفة أن لها حائطاً قصيراً يقتحم منه عليها فيسرق دجاجها، فأرسل عمر فوراً إليها يخبرها أنه أرسل إلى والي مصر يطلب إليه أن يصلح لها حائطها، ويحصن لها بيتها. فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها، فإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به الخليفة، وحصَّن لها بيتها.[٣١]

❖ نموذج آخر يدل على سمو التربية العربية الإسلامية وتميزها عن غيرها، فلقد روي أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله فيها؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله؟ فكلمه أسامة، فقال له الرسول: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ولقد عاتب الإمام علي عليه السلام الخليفة الفاروق على تكريمه له يوم أن قدم واليهودي إلى المحاكمة، وأراد الخليفة الفاروق رضي الله عنه أن يرحب به ويكرمه قائلاً: «اجلس يا أبا الحسن» فاكفهر وجه علي، وعندما انتهت المحاكمة قال له الخليفة الفاروق: «مالك يا أبا الحسن أراك مكفهر الوجه؟»، فأجاب علي: ولِمَ تناديني بأبي الحسن، هلاّ قلت: أقبل يا علي، فأنا واليهودي على قدم المساواة أمام القانون، فقال له عمر: بأبي أنتم أهل البيت، بكم أخرجنا الله من الظلمات إلى النور.

---

(٣١) الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٧٧.

ولا يمكننا أن ننسى قولة عمر المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، وذلك عندما وقف إلى جانب المصري الذي ضربه ابن عمرو بن العاص لأنه سبقه في سباق، فأمره عمر أن يضرب «ابن الأكرمين» الذي استغل نفوذ والده.

ولقد جسَّد بموقفه من جبلة بن الأيهم الذروة في حقوق الإنسان، إذ بعد أن أعلن ابن الأيهم وهو ملك الغساسنة في الشام إسلامه قدم إلى الحجاز فرحّب به الخليفة الفاروق، واصطحبه معه إلى الحج. وفي أثناء الطواف حول الكعبة يدوس رجل من بني فزارة إزاره، فغضب، ورفع يده، وهشم له أنفه، فشكاه الفزاري إلى عمر، فطلب إليه أن يرضي الرجل أو يقيده فيه، وكيف يقيده؟ يأمر بهشم أنفه كما فعل هو بغيره. ويحتج جبلة مستنكراً هذه المعاملة قائلاً: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟ فيجيبه عمر بهدوء: دع عنك هذا، إن الإسلام قد جمعك وإياه فليس تفضله إلا بالتقوى والعافية. ويدور بين الرجلين حوار قصير وحاد، ويرى جبلة الصدق والتصميم من عمر فيطلب منه مهلة إلى الغد ينظر في أمره ليلته تلك، ويوافق عمر خشية الفتنة، وما إن ينام الناس ويهدؤوا حتى يتحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية، إلى هرقل، ينشد لنفسه ولعرشه الثبات والبقاء، ولكنه هناك يعاني الغربة والندم والحنين.

تجربة عنيفة فيها أكثر من فكرة ومن حادثة: عنفوان الجاهلية، مفهوم البدوي عن الكرامة، سورة الانفعال التي تحدد المواقف، معظم المواقف، الارتماء في أحضان الأجنبي، بل تحت أقدامه حفاظاً على تاج وجاه ونعمة، الغربة القاتلة، الندم المر، الحنين إلى الجذور القومية...الخ.

❖ ومن نتاجات التربية العربية الإسلامية في مجال حقوق الإنسان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فقدموا إلى المدينة وهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، والأنصار مستقرون في بيوتهم وأموالهم بين أيديهم، فليلتفت كل منهم إلى أخيه من المهاجرين، وليفتح له بيته، وليقسم معه سراء الحياة وضراءها. لم يفعل ذلك أحد من الأنصار وهو مستاء، بل كان يشعر بالسرور والارتياح، وهو ينشد رضا الله، وكان كل منهم يتسابق إلى تقديم العون إلى أخيه بكل حماسة واندفاع وإيمان «لا يؤمن

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه».

❖ ومن المواقف الرائفة للتربية على حقوق الإنسان في تربيتنا العربية أن يتسم الإنسان بالموضوعية واحترام حقوق الآخر وهو في ذروة مواقف الغضب، وهنا يتجلى الإنسان الإنسان، فها هو ذا الرسول ﷺ بعد فتح مكة يقف من المشركين الذين آذوه وشتموه وأخرجوه من دياره موقفاً لا مثيل له، فقد قال لهم: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله: أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبلُ لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وعندما دخل الخليفة الفاروق إلى القدس فاتحاً عامل سكانها بمنتهى التسامح والعفو، ولا يمكننا أن ننسى موقف صلاح الدين الأيوبي من أعدائه عندما فتح بيت المقدس، فقد ذبح هؤلاء في داخل المسجد الأقصى سبعين ألفاً من الأئمة والعباد والنساء والأطفال، وبعد دخول صلاح الدين فاتحاً بعد تلك المجزرة عامل مرتكبيها معاملة إنسانية حيث بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة أربعين يوماً للخروج.

ويذكر الغربيون أنفسهم عن صلاح الدين أنه عندما بلغه مرض ريتشارد قلب الأسد أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم، أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل إليه العلاج والفواكه، هذا والحرب بينهما مستعرة وجيشاهما في صراع.

❖ ومن القيم التي عززتها التربية على حقوق الإنسان في تراثنا العربي في أثناء ممارسة مهنة الطب أن يكون الطبيب أميناً في الحفاظ على الأرواح، وألا يصف دواء قاتلاً وألا يعلمه، وأن يعالج عدوه كما يعالج حبيبه بنية صادقة.

❖ وروي أن علياً دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم، فقال علي: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال له: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ قال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادمة له بسفود (وهي حديدة يشوى بها اللحم: وتسفيد اللحم، أي نظمه في السفود» عليها شواء حار، فنزعت السفود من اللحم، وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى.[٣٢]

وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، فقال له : لأجمعنَّ مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى.

ورحم الله شاعرنا إذ يقول:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

❖ من المواقف التي نعتز بها في تراثنا العربي أن التربية على حقوق الإنسان أرست دعائم السلام، وحققت الأمن والاستقرار لا للمسلمين فحسب، بل لغيرهم من الديانات الأخرى، إذ لم تكن الوظائف تعطى إلا للمستحق الكفي بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، فكان الطب في العصرين الأموي والعباسي يتولاه غير المسلمين من أمثال «ابن ماسويه، وبختيشوع، وابن بنان...الخ».

ويقول (مارك سايس) في وصف الامبراطورية العربية الإسلامية في عهد الرشيد: «وكان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة».

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، إذ كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم وديانتهم على النحو الذي أشرنا إليه من قبلُ.

❖ ومن الجوانب التي نعتز بها في تراثنا العربي في المجال التربوي التربية البيئية، وقد رأينا من قبل وصية رسول الله ﷺ لأصحابه في غزوة مؤتة حول دعوتهم إلى عدم قتل وليد ولا امرأة ولا كبير فانٍ ولا منعزل في صومعة، والحفاظ على النخل وعدم قطع شجرة أو

---

(٣٢) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي- المستطرف في كل فن مستظرف- المكتب العالمي للبحوث- دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٩٤.

هدم بناء.

ولقد تجاوزت النزعة الإنسانية في التراث إلى الرفق بالحيوان وأنسنته، فعززت التربية الإسلامية هذا المنحى في الرفق بالحيوان والرحمة به، فقد تدخل هذه الرحمة صاحبها الجنة، قال رسول الله ﷺ: بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر». كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار، إذ يقول الرسول: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد أنسنت الحيوان (الفرس عند عنترة، والحمامة عند أبي فراس الحمداني)، والنبات والنسيم (عند عبد الرحمن الداخل في خطابه لشجرة النخل، وابن زيدون في خطابه لنسيم الصبا)، والجماد (وصف الجبل لدى ابن خفاجة الأندلسي على أنه شيخ وقور) ، فإن الآية قد انقلبت في عالمنا المعاصر فتحولت أنسنة الأشياء إلى تشيئة الإنسان، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على انحسار القيم الإنسانية في ظل الاجتياح المادي، وما أمرَّ أن يتحول الإنسان خليفة الله على الأرض إلى شيء لا يحس به أخوه الإنسان!

مراجع الفصل

١- ابن حزم- الإحكام في أصول الأحكام- مطبعة السعادة بمصر- القاهرة ١٣٤٥هـ.

٢- ابن خلدون- المقدمة- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.

٣- ابن قتيبة الدنيوري- أدب الكاتب- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٩٥٤.

٤- أبو نصر الفارابي- إحصاء العلوم- مطبعة السعادة بمصر- القاهرة ١٩٣١.

٥- الجاحظ- البيان والتبيين.

٦- الدكتور جميل صليبا- مستقبل التربية في الشرق العربي- مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٢.

٧- الدكتور زكي نجيب محمود- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت ١٩٧٣.

٨- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي- المستطرف في كل فن مستظرف- المكتب العالمي للبحوث- دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٩٤.

٩- عباس محمود العقاد- مجلة الهلال- عدد نيسان ١٩٣٦.

١٠- عبد الرحمن الحاج صالح- أصول البحث في التراث اللغوي العلمي العربي- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق- ٢٠٠٩.

١١- الدكتور عبد العزيز العاشوري- لماذا إحياء التراث؟

١٢- الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- دار الجيل- بيروت- ١٩٨٩.

١٣- قدري حافظ طوقان- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك- الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية- القاهرة ١٩٥٤.

١٤- الدكتورة لبانة مشوح- علوم اللغة العربية في ضوء اللسانيات الحديثة- المؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠٠٩.

١٥- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١.

١٦- الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٤.

١٧- الدكتور محمد النويهي- ثقافة الناقد الأدبي.
١٨- الدكتور محمود أحمد السيّد- في تراثنا العربي- مطبعة العجلوني- دمشق ٢٠٠٢.
١٩- الدكتور محمود أحمد السيّد- التراث بين الماضي الحي والغد المنشود- مجلة العرب- دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع- الرياض ج٩ و١٠ آذار ونيسان ٢٠١٠.
٢٠- الدكتور محمود منقذ الهاشمي- الإسلام وعالمية حقوق الإنسان- مركز الإنماء الحضاري- حلب ١٩٩٥.
٢١- الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٧٧.
٢٢- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩.

الفصل الرابع

صوى على درب النهوض بالتراث العربي وإحيائه

الفصل الرابع

صوى على درب النهوض بالتراث العربي وإحيائه

إن خصائص التراث العربي، من عراقة، وشمول، وترابط، واتصال بالحضارات الأخرى، وقدرة على الأخذ والعطاء والاقتباس والتفاعل، واحترام العقل، والتعويل على التفكير، واعتماد حرية الفكر، والاجتهاد، والتمسك بالقيم الأخلاقية والإنسانية، يؤكد ذلك كله توجهاً ذا رؤية متكاملة، وبرامج متطورة، وأساليب متجددة، تحفظ للحضارة العربية الإسلامية خصائصها الأصيلة، وتمكنها من التفاعل الخلاق مع خصائص العصر في الحاضر والمستقبل.

ومن الشروط الضرورية لنهضتنا تحديث فكرنا، وتجديد أدوات تفكيرنا، وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصيلة معاً. وتجديد الفكر لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة التي ينتمي إليها إذا هو أراد الارتباط بهذه الثقافة والعمل على خدمتها.

وعندما يتعلق الأمر بفكر أمتنا فإن عملية التجديد في ثقافتنا لا يمكن أن تتم إلا بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة، وإلا بالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها وحاضرها، إنه بممارسة العقلانية النقدية في تراثنا وبالمصطلحات المنهجية لعصرنا، وبهذه الممارسة وحدها يمكن أن نزرع في ثقافتنا الراهنة روحاً نقدية جديدة وعقلانية مطابقة، وهما الشرطان الضروريان لكل نهضة.[1]

إن تراثنا الفكري كائن ينمو ويتراكم ويتناقض ويتصارع في الحياة، ولو أنه ماض، فكيف ندرس هذا الكائن الحي الميت في الوقت نفسه؟ فهو ميت أي ماض بالنسبة لنا، ولكنه حي فينا، وهو ماض تفصلنا عنه أحياناً مسافات زمنية، لكنه حي، فحين نقرأ الأدب الجاهلي نشعر أن بيننا وبينه حياة، وعندما نقرأ شعر المتنبي نشعر أنه يعبر عن رؤانا وما يجول في نفوسنا، وستبقى الأجيال تردده لأنه إنساني في أبعاده ومراميه.

ومن البدهي والحتمي أن نحتفظ بمعالم تراثنا، وأن نسعى إلى إحياء ما اندثر منه، أو ما تراكم عليه من غبار النسيان، فكم في الزوايا من خبايا! وكم بين حطام الماضي ما من شأنه أن

---

(١) الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١ ص٣٣.

يعين على بناء الحاضر وتشييد المستقبل دون نبو في الفكرة ولا في الشكل.[٢]

وإننا نتوجه إلى التراث ماضياً وحاضراً لنسائله ونحاوره بهدف جعله يسهم في تسليط الأضواء على مشكلاتنا الراهنة، دون أن يلزمنا ذلك بالانصياع لموقف أو رأي في ذلك التراث انصياعاً عشوائياً أو على أساس من التقديس والاحترام المسبق له.[٣]

إن كل ما من شأنه العون على بناء الحاضر وتشييد المستقبل هو الماضي الحي الذي لابد من التركيز عليه، ولا يسع أمة تجدد ذاتها أن تقطع صلتها بماضيها، وقد ثبتت للأمة العربية عقيدتها، وبقيت لها ذاتيتها، يكشف عنها تراث غني يمثل ماضياً حياً يقاوم الفناء، فما مسوّغات استمرارية هذا الماضي الحي؟

- هو تراث حي لأنه إنساني في قيمه وفضائله وفي مناهجه ومواقفه، استمد مصدره من أصول العقيدة، وأسهمت فيه حضارات وعبقريات من سائر الأمم والشعوب، وهو موجه إلى الإنسانية جمعاء.
- وهو تراث حي لأنه ظل سارياً بين الجماعات، كامناً في حناياها، موصولاً من جيل إلى جيل، متغلغلاً بين النفوس، لم تخمد جذوته بين الأفراد عامة، وقد يجدده بعض الأعلام هنا وهناك على حقب، وقد أعان بروحه وقيمه ومثله الأمة على الصمود مهما داهمت أقطارها الغزوات والنكبات.
- وهو تراث حي لأنه قابل للتطور، وصالح للبقاء في كل زمان ومكان، يعوّل على أشرف ما في الإنسان عقله وضميره، ويدعو إلى ديمقراطية المجتمع والإخاء والمساواة في

---

(٢) الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر: التراث ودوره في البناء الحضاري المعاصر- وزارة الشؤون الثقافية بتونس- ١٩٧٦ ص١٢٩.

(٣) الدكتور الطيب التيزيني- من التراث إلى الثورة- دار دمشق- ١٩٧٩ ص٧٣٣.

الإنسانية، وهي معايير صالحة في هذا العصر وفي سائر العصور.[٤]

وفي ضوء هذه المسوّغات كافة أرى أن علينا في توجهنا المستقبلي العمل على:

١- استكشاف التراث الحي الذي لم يحقق بعد، ما هو منه على الصعيد العربي، وما هو منه على الصعيد العالمي في مكتبات العالم، وذلك بروح العقل الناقد ومناهج العلم الموضوعية، وثمة من يرى أنه لابد من تحقيق خطوات ثلاث من أجل تحقيق الحد الأدنى من الموضوعية في دراسة التراث، وهذه الخطوات متداخلة وهي:[٥]

أ- **الخطوة الأولى**: قوامها المعالجة البنيوية، وتعني الانطلاق من النصوص في دراسة التراث، واستخلاص معنى النص من ذات النص، أي من خلال العلاقات القائمة بين أجزائه.

ب- **الخطوة الثانية**: هي التحليل التاريخي، وتعني ربط فكر صاحب النص بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية.

ج- **الخطوة الثالثة**: هي الطرح الأيديولوجي، ويقصد به الكشف عن الوظيفة الإيديولوجية الاجتماعية السياسية التي أداها الفكر المعني.

٢- استلهام التراث وتحويله إلى مؤثرات فاعلة في حياتنا المعاصرة، وفي بناء المستقبل الذي نبتغيه بالاعتماد على وسائل متعددة منها:

أ- نشر التراث المتخيّر إحياؤه والتعريف به.

ب- ترجمته إلى اللغات الحية الأخرى.

ج- إدراجه ضمن الثقافة الشائعة في المجتمع وضمن البرامج التعليمية.

د- الانطلاق منه في أعمال إبداعية جديدة كالقصة والمسرح والرواية والسينما وغيره من النشاطات الفكرية وفي العمارة، وتقديمها برؤية جديدة وقراءة معاصرة تستطيع التأثير في

---

(٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- إدارة التربية- تونس ١٩٧٩ ص٧٢.

(٥) الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مرجع سابق ص٣٢.

المستقبل، وتغييره نحو الأفضل.

هـ- اعتماده في ضبط قيم ومناهج حاضرة.

و- الاستناد إليه في تطوير فلسفة عربية متميزة تعبر عن ذاتية الأمة العربية وشخصيتها القومية في عصر متغير ومتطور باستمرار.

٣- اعتماد الفلسفة العربية المتميزة والمستندة إلى استلهام قيم التراث وفضائله بعد جلائها وتمييزها وتمحيصها لمواجهة مشكلات الحياة المعاصرة والتماس حلولها، وجعل ذلك رسالة متجددة يحملها العرب إلى العالم الإسلامي، وإلى العالم الثالث، ويسهمون بها في خدمة الإنسانية جمعاء.[٦]

٤- التركيز على كل ما يوحد في عملية الإحياء والنشر، ونبذ كل ما يفرق وإبعاده، إذ إن الواجب يقضي بأن نبعد من حياتنا المعاصرة ما قد نختلف حوله، وأن يركز الجهد على التراث العلمي العربي الذي يعيد للعقل العربي ثقته بنفسه، ويقدم للأجيال نموذجاً مما ينبغي أن يجعلوه رسالة ثقافية لهم، والمؤسف أن ينصرف بعض الكتاب والإعلاميين إلى إيقاظ الفتن والاختلافات الميتة، وهم بعملهم هذا يعمدون إلى قتل العقل العربي وإعادته إلى جدليات طواها الزمن.

وما أزعج بعض الندوات التي تبثها بعض الفضائيات العربية حول قضايا ووقائع حدثت قبل ألف وأربعمئة عام، وطالما سمعنا متحاورين يتحدثون بعصبية وانفعال حول هذا التاريخ كأنه راهن ومعاصر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تفكك الوعي الفكري لأصحابها !

٥- التركيز على الصفحات المشرقة من التراث في عملية الإحياء والنشر، وتعريف أجيالنا والعالم بها بطريق ترجمتها إلى اللغات الحية.

٦- إحداث مقرر وضع المصطلحات العلمية في الكليات العلمية في جامعات الوطن

---

(٦) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص٧٣.

العربي استئناساً بما ورد منه في تراثنا حال وجوده.

٧- تشجيع طلبة الدراسات العليا للبحث في ميادين العلوم المختلفة في تراثنا، وتقديم كل الدعم المادي والمعنوي لهم، ودعم الجهات المعنية بهذا الجانب كمعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب.

٨- إحداث موقع على الشابكة (الإنترنت) لرصد الأنشطة والفعاليات التراثية في كل علم تعريفاً بالمخطوطات في بابه، وتحقيقاً ونشراً، وتبياناً لكل جديد في ميدانه على الصعيدين العربي والعالمي.

٩- اعتماد أساليب جديدة وطرائق حديثة ورؤى معاصرة في قراءة تراثنا في مختلف ميادينه، بحثاً عن الأصالة فيه، وتعريفاً للأجيال الجديدة بها ربطاً للأصالة بالمعاصرة.

١٠- السعي إلى إقامة معارض دولية سنوية تعنى بالمخطوطات العربية تحقيقاً ونشراً، وباللقى والمكتشفات في ميدان الآثار في الوطن العربي.

١١- تخصيص جوائز قيمة لأفضل كتاب علمي حقق في العام نفسه، ولأفضل موقع على الشابكة (الإنترنت) يرصد الفعاليات في مجال التخصص.

١٢- تشجيع الاتفاقيات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية ولاسيما الدول التي تضم مكتباتها مخطوطات عربية بغية التبادل الثقافي والتعاون في هذه المجالات وغيرها من الشؤون الثقافية.

١٣- دعوة المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي إلى طباعة أمهات الكتب المحققة طبعات ميسرة وبأسعار مناسبة بغية إيصالها إلى أوسع شريحة من الجماهير، ووضعها على الشابكة تعميماً للفائدة.

١٤- الإكثار من الندوات والمحاضرات والمؤتمرات في مجال التوعية بالتراث تعزيزاً للانتماء، وإعادة للثقة بإبداعات العقل العربي في مختلف ميادين المعرفة.

١٥- تكوين الأطر العربية على المستوى الجامعي والدراسات العليا في مجالات اللغات القديمة والبحث والتنقيب عن الآثار في الوطن العربي لتحل محل البعثات الأجنبية

الأثرية التي تنقب عن هذه الآثار في بلادنا العربية، بعد أن تبين أن نفراً من الأجانب لا يتسم بالموضوعية في الكشف عن آثارنا.

١٦- تنشيط السياحة الثقافية في مختلف مجالاتها لتعريف الآخرين بتراث أمتنا بوجهيه المادي والمعنوي، وتزويد الأدلاء السياحيين بالمعرفة والمعلومات الدقيقة التي يحتاجون إليها في ميادين عملهم.

١٧- إيلاء العناية بالآثار في مناهجنا التعليمية، وفي مختلف المراحل، بغية تزويد الناشئة بالمعلومات عنها، وفسح في المجال للزيارات الميدانية لها، تنمية للاعتزاز بآثار أمتهم، وإسهاماً منهم في الحفاظ عليها.

١٨- إيلاء العناية بالتراث اللا مادي في حياتنا الثقافية إلى جانب التراث المادي، حفاظاً على هذا التراث اللا مادي المتمثل في الأغاني والموسيقا والأمثال والحكم والأساطير والقصص والحكايات والتقاليد والعادات...الخ.

١٩- تعزيز تدريس اللغات القديمة في جامعات الوطن العربي انسجاماً مع الكشف عن عراقة تراثنا العربي وآثاره التي ما تزال باقية من تلك الحقب القديمة.

٢٠- الارتقاء بالذائقة الجمالية عند الناشئة بإطلاعهم على مختارات شعرية ونثرية من تراثنا الأدبي الفني، تتسم بالجمال شكلاً ومضموناً، ودعوة اتحاد المجامع اللغوية العربية إلى القيام بتنفيذ هذا المشروع إلى جانب مشروع (المعجم التاريخي للغة العربية).

٢١- اعتماد اللغة الأم (العربية الفصيحة) في جميع مناحي المنظومة الثقافية، وإن تراث الماضي الحي وفكر الحاضر ونشدان المستقبل، ذلك كله يؤكد الحاجة الماسة إلى استعمال اللغة الأم في بناء نهضتنا وغدنا المنشود، وأن ضروب الثقافة التي ننشدها في توجهنا المستقبلي لابد أن تكون كافة باللغة القومية تتدفق من ينابيعها، وتستمد قوتها من حياتها لأنها هويتنا، ولا وطن من غير هوية، فهي وطننا الروحي، وكما للوطن حدود ينبغي لنا المحافظة عليها، فكذلك للغة حدود لابد من المحافظة عليها في جميع شؤون حياتنا.

وما أجمل مقولة «فيختة» في دعوته إلى اعتماد لغته الأم الألمانية في نهضة أمته، إذ يقول: إن

التربية التي ننشدها ينبغي لها أن تكون وطنية بكل معنى الكلمة، ينبغي أن تكون باللغة الألمانية، والمعلمون ينبغي لهم أن يعلموا بالألمانية، والكتب الدراسية تكون بالألمانية، ذلك لأنني لا أتصور كيف يكون الأمر غير ذلك، إنني لا أتصور أن يعلم المعلمون، وتؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الألمانية، أياً كانت هذه اللغة، والدولة التي تفرض على الشعب التجنيد الإجباري لرد الغزو المادي مع احترام حقوق الفرد وحريته في الظروف العادية لا يحق لها فقط، بل يجب عليها أن تفرض عليه أيضاً التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحي، وتضمن له الاستمرار والخلود. وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس اللغة القومية الأصلية التي هي القوة الطبيعية الأولى للأمة!

وما أجدر بالسياسيين والمسؤولين عن الشؤون التعليمية والثقافية في وطننا العربي أن يتمثلوا هذه الدعوة في اعتماد العربية في المدارس الخاصة والجامعات الخاصة في وطننا العربي!

وما أكثر العبَر التي يمكن الاستئناس بها في نهضة الأمم الحية ! وما أقل الاعتبار منها في واقعنا العربي ويا للأسف !

مراجع الفصل

١- الدكتور الطيب التيزيني- من التراث إلى الثورة- دار دمشق ١٩٧٩.

٢- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩١.

٣- الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر- وزارة الشؤون الثقافية- تونس ١٩٧٦.

٤- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- تونس ١٩٧٩.